المخطط الامريكى المحكم في الشرق الاوسط

من أجل السيطرة على المحور بين أوروبا وآسيا وافريقيا

فولف شينكه Wolf Schenke

« ان ميلي الشخصي يذهب الى القول بان علينا ان نتحدى بطريقة عدوانية الاتحاد السوفياتي ودولا أخرى - وطبعا بالطرق السلمية - في تلك الاجزاء من العالم التى نعتبرها مهمة ، سواء الآن أو التى ستكون مهمة خلال 15 أو 20 سنة · ويشمل هذا مناطق مثل العراق، والصومال، والجزائر ··· » ·

من خطاب لجيمى كارتر أمام أعضاء اتحاد دور النشر الاميركية فى البيت الابيض فى حزيران 1977 ·

ان مفتاح السيطرة على العالم يكمن اليوم وفى نهاية « العصر الحديث » وكما كان سابقا فيما يسمى بالعصور القديمة أو العصور الوسطى ، فى البحر المتوسط ·

وبكلمات أخرى بسيطة أو لنقل بكلمات الرئيس الامريكى كارتر : ان منطقة البحر المتوسط هي جزء من تلك المناطق من العالم التى نعتبرها مهمة ، سواء الآن أو التى ستكون مهمة خلال 15 أو 20 سنة ·

(*) تفضل السيد فولف شينكه ، رئيس تحرير مجلة « نوية برليتيك » (السياسية الجديدة) الصادرة فى أوت 1977 - بها مبورغ - جمهورية ألمانيا الاتحادية - بارسال هذه الترجمة العربية لمقاله هذا الصادر فى المجلة المذكورة ·

ونحن اذ ننشره شاكرين نعمل بمبدا المجلة وحسب طابعها كمنبر حر مفتوح ، مثل ملتقيات الفكر الاسلامى، ومحاضرات، وندوات، وعرض أفلام المركز الثقافى الاسلامى ، والباب مفتوح للرد ، والتأييد ، والتعليق باية صورة من الصور ·

واذا تحدثنا هنا عن البحر المتوسط ، فلا يقتصر حديثنا على البحر المتوسط بحد ذاته ، بل يتعدى ذلك الى المنطقة بأسرها ، الى الدول المطلة على البحر المتوسط والدول التى خلفها تلك الدول التى لها علاقة وارتباط بالاحداث فى المنطقة · وهي منطقة تمثل طاقة غنية بالبشر وبالكنوز الطبيعية التى لم تستثمر بعد كما انها تمثل طاقة غنية أكبر من اية قوة دولية حاليا بل ربما أكبر من القوتين الدوليتين مجتمعة · والمقصود بهذه المنطقة هي العواصم الاوروبية والعربية والافريقية وغربى آسيا ·

بعد شهر واحد فقط من تصريحات كارتر التى ورد ذكرها مقدما تحدى الرئيس المصرى السادات ، احدى الدول ، بصورة عدوانية وغير سلمية أبدا ، ونقصد بذلك جارته ليبيا · وكانت هذه الدولة ـ ربما تعمدا ؟ ـ قد أغفلت من قبل الرئيس كارتر عندما عدد اسماء المناطق المهمة ، وعلى الرغم من ان ليبيا ووفقا لطبيعة القضية يجب ان تدخل فى القائمة بين العراق والجزائر ·

من العبث ان نضارب الآن فى دوافع الرئيس المصرى السادات ، عندما أمر بالهجوم على ليبيا ، وكما فعل سابقا الكثير من المعلقين غيرنا · كما انه من العبث ان نضارب اليوم ان كان موعد الهجوم على ليبيا قد سبق وضعه بالاتفاق مع الاميركان أو ان نصف السادات « باللاعب » (1) الذى تطارده اشباح الملاحقة ، وبعد ان وضع نفسه كليا بيد الاميركان وبعد ان علق حياته السياسية بخيوط الاموال السعودية وبالمشيئة السياسية للرئيس الاميركى كارتر (2) ، وبعد ان بدأ وبمحض ارادته عملية الهرب نحو الامام · وبغض النظر عما يكون صحيحا أم لا ، فان كافة هذه المضاربات ، ستظل شيئا جانبيا ، عند مقارنتها بالحقيقة التى تنص بان اسقاط الرئيس الليبى القذافى ـ والاستيلاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ على حقول النفط الليبية ، هي مرحلة مهمة فى مخطط الاستراتيجية الاميركية البعيدة المدى ·

ان ما تحدث به الرئيس الاميركى كارتر لاعضاء اتحاد دور النشر الاميركية لم يكن سوى جزءا من الدراسات والاسس والاتجاهات السياسية التى قدمها اليه البنتاغون أو وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية قبل وبعد توليه منصب الرئاسة والتى تبناها كارتر فيما بعد ·

---

(1) كما ورد وصفه فى مقال افتتاحى لصحيفة «تايمس» الصادرة فى 1977/7/23 ·
(2) من مقال كتبه دافيد هولدن فى «صانداى تايمز» فى 1977/7/24 ·

من مخططات العنف الى الدبلوماسية ...

يدور الحديث هنا عن تفكيرات ومخططات الطموح لسيطرة الولايات المتحدة على لعالم وذلك من قبل الفئات القيادية فى الولايات المتحدة . ولاجل الوصول الى هذا الهدف ، يجب أولا ان يعمل على عزل الاتحاد السوفييتى وحليفاته الدول الشرقية أو الدول التى تدور فى فلكه ، عزلا تاما . وهذا يعنى رفض أي نفوذ للاتحاد السوفييتي فى اية منطقة من العالم خارج مناطق النفوذ والتسلط التى حصلت عليها الولايات المتحدة فى اعقاب الحرب العالمية الثانية . كما ان الهدف هو ازالة أي نفوذ له فى اية منطقة خارج حدود تلك المناطق وفي اية منطقة أخرى قد يمكنه كسب النفوذ فيها .

ان هذا الهدف يعنى فى نفس الوقت رفض اية صيغة لوجود « عالم ثالث » ـ ولو ان هذا الرفض لم يجر الحديث عنه علنا أبدا ـ أو وجود صيغة معسكر عدم انحياز أو الدول أو المناطق المحايدة . ان الهدف يتعدى ذلك الى وجوب اخضاع الجميع ودون استثناء الى قوة السيطرة الاميركية السياسية والاقتصادية والايديولوجية والى وضع كافة هذه الدول فى جبهة واحدة وهي جبهة الولايات المتحدة .

وقد ادركت واشنطن ومنذ بداية هذا العام ان منطقة الشرق الاوسط هي من الناحية السياسية ـ الجغرافية أهم منطقة فى العالم ، فيجب للسياسة الاميركيه دخولها . وسيما بعد ان فقدت الولايات المتحدة فى منطقة الشرق الاوسط بالذات مواقعها نتيجة مساندتها (اسرائيل) ومن خلال سياسة جون فوستر دالاس الذى رفض فى حينه بناء سد اسوان ، وحتى ليمكن القول ان السياسة الاميركية هي نفسها التى فتحت الباب لبعض النفوذ السوفياتى ، للدخول الى بعض الدول المهمة التى كانت تلاحق حتى ذلك الحين سياسة عدم الانحياز .

وهكذا وجب العمل على عكس هذه التطورات الى الاتجاه المعاكس . وختاما ما اعطى التعلق المباشر للولايات المتحدة ـ وحليفاتها الدول الاخرى ـ وبالنفط العربي اعطى زخما للولايات المتحدة لتعطى منطقة الشرق الاوسط الاولوية فى جملة مواضيع جل اهتمامها . وكان الهدف هنا هو وضع اليد على انتاج النفط فى منطقة الشرق الاوسط قبل كل شيء ، وبالتالى تأمين وصول النفط .

تم أولا وضع المخططات للوصول الى حل عن طريق العنف : وهو الاحتلال العسكرى لا هم حقول النفط العربية من قبل القوات العسكرية الاميركية وبمساعدة أو بغير مساعدة الجيش (الاسرائيلى) . فتدربت وحدات من الجيش الاميركى لهذا

الغرض فى مناطق معينة من الولايات المتحدة على حرب الصحراء · واذا لم تنفذ هذه المخططات الى الآن ، فلا يعنى انها الغيت · ان الخبرات التى تعلمتها تلك الوحدات درست جيدا واستخلصت نتائجها ، واصبحت المخططات جاهزة فى ادراج مكاتب البنتاغون ويمكن العودة اليها فى أي وقت وعند توفر الحاجة اليها ·

ومن جهة أخرى تمكنت الدبلوماسية الاميركية من تحقيق نجاحات مدهشة فى منطقة الشرق الاوسط سيما بعد حرب تشرين عام 1973 · فقد تمكنت وخلال فترة زمنية قصيرة جدا وبحجة تحقيق السلام الدائم بين (اسرائيل) والدول العربية ، من تفريق الدول العربية تماما وبعد الاتفاق العربى اثناء الحرب الاخيرة واثناء المقاطعة النفطية · فقطع أنور السادات علاقاته مع الاتحاد السوفييتى تماما وتحول منذ ايام « صديق هنرى » (كيسنجر) الى انتهاج خط السياسة الاميركية فى الشرق الاوسط · وهو لا يأمل ان يسترجع الاراضى المصرية المحتلة من قبل (اسرائيل) بواسطة الضغط الاميركى عليها فحسب ، بل يتابع سياسة موازية للمصالح الاميركية فى افريقيا · وقد أدى قطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتى الى اضعاف الجيش المصرى بشكل كبير ولم يعد قادرا أو مستعدا لمجابهة هجوم محتمل من قبل (اسرائيل) ، وذلك بعد انقطاع تجهيز قطع الغيار والمعدات السوفييتية الاخرى عن الجيش المصرى المسلح بالاسلحة السوفييتية الحديثة ·

ومن جهة أخرى تقارب الرئيس السورى حافظ أسد ، وبعد فترة تردد أولية ، مع سياسة واشنطن فى الشرق الاوسط · وانقذ تدخله فى لبنان القوى الموالية للغرب هناك من قوى اليسار والفلسطينيين ، كما انزل ضربات وخسائر شديدة بالفلسطينيين ·

أما أكبر نصر حققته الدبلوماسية الاميركية فكان فى السعودية · فمنذ ان احتلت الولايات المتحدة وبالعنف حقول النفط السعودية ووفق خطة عسكرية حضر لها سابقا ، يتواجد اليوم وبعد بضعة سنوات فقط من ذلك التاريخ ، آلالاف من الضباط وضباط الصف والجنود الاميركان ، **بدعوة** من الحكومة السعودية لتدريب ومساعدة الجيش السعودى ، الذى يشترى اضافة لذلك بقيمة المليارات من الدولارات الاسلحة من الصناعة العسكرية الاميركية · وفى الوقت الذى اصبحت فيه الولايات المتحدة تدخر أحتياطى النفط والذى هو فى انخفاض مستمر هناك ، تبيعها السعودية النفط وبكميات كبيرة وهو الثروة الوحيدة للدولة ، هذه الثروة الكبيرة جدا والمحدودة الامد طبعا · كما انها أي السعودية تسعى وتحاول لابقاء اسعار النفط منخفضة ، وتتعرض

بذلك الى النزاع مع شقيقاتها الدول العربية النفطية الاخرى · انها تساند ماليا مختلف الانظمة فى المنطقة سيما التى تحولت لانتهاج سياسة غربية أو موالية للولايات المتحدة ، وفى مقدمتها مصر ونظام السادات فيها ، اضافة الى كل ذلك تستثمر السعودية الجزء الاكبر من فائض النقد فيها فى الولايات المتحدة معتمدة على قيمة الدولار السيئة ·

ومرة أخرى الى العنف ···

رغم هذا الرصيد الكبير للدبلوماسية الاميركية فان واشنطن غير قانعة أبدا بما تحقق حتى الآن ، وبعد ان كانت الولايات المتحدة وحتى وقت قريب غير ذات تواجد مهم فى المنطقة العربية · ولذلك سببان :

* أولا : ان الاستمرار غير المعرقل لهذا التطور ـ واذا نظرنا للامر بعين العقل والواقعية ـ يتعلق بالتصورات غير الاكيدة عن احتمال قيام واشنطن بتصعيد الضغط على (اسرائيل) وحملها لتقديم تنازلات أكبر الى الدول العربية والفلسطينيين · لان الامل بالوصول الى ذلك هو الاساس الوحيد لسياسة السادات وكذلك للسياسة السعودية والى درجة معينة · فالمرء فى واشنطن يعلم بكل تأكيد وافضل مما يعلمه المرء بالقاهرة ، ما هي امكانات التأثير على (اسرائيل) فعلا ، وهناك من يقدر ـ وبكل واقعية ـ ان هذه الامكانات قليلة جدا ، وبأنها أقل مما يتوقع البعض ومنهم السادات مثلا ، غير ان هؤلاء لا يعترفون طبعا بذلك علنيا ، ويودون ان تتأخر حلول ساعة الحقيقة الى أبعد مدى ممكن · وهكذا فان الهدف هو العمل على انتهاز الوقت حتى حلول ساعة الحقيقة .

* السبب الثاني : فهناك عوامل غير مريحة فى المنطقة العربية وفى نفس الوقت دول عربية ، لا تعتقد بامكانية ايجاد حل للمشكلة (الاسرائيلية) بمساعدة الولايات المتحدة وبشكل يوافق عليه العرب : العراق وليبيا والجزائر · وهكذا يجب ازالة هذه العوامل المعرقلة أو محاولة ربطها بالمصالح الاميركية ·

وقد ذكر الرئيس كارتر العراق والجزائر بكل وضوح · ولكنه نسى ان يذكر ليبيا ـ هل كان ذلك عفوا ؟ ـ وهي تتمتع بأولوية خاصة فى هذا المجال ونظرا لسلسلة طويلة من الاسباب ، سواء كانت تكتيكية أو استراتيجية الطبيعة · وسيظل الحديث عن هذه الاسباب طويلا · ومن هذه الاسباب ما يعتمد على ان « العداء المميت » بين

السادات والقذافى يمكن ان يستخدم كخطوة أولى فى اتجاه الهدف الموضوع والبعيد المدى ٠

على القذافى ان يختفى ٠٠٠

وضع مخطط أميركى جديد منذ ان طرد القذافى السلاح الجوى الاميركى من ليبيا ومنذ قيامه بتأميم النفط الليبى ، ويرتأى هذا المخطط ازاحة القذافى وكذلك كما لوحظ مؤخرا العمل على ضم ليبيا الى مصر أو على الاقل تمشيها بنفس الاتجاه ٠ وهنا تتطابق مصالح السادات تطابقا تاما مع المصالح الاميركية ، حيث يقف النفط وعوامل الاستراتيجية العسكرية فى المقدمة :

(I) ان القذافى وهو يمتلك فائضا ماليا كبيرا من عوائد النفط الليبى معارض شديد لكافة المساعى أو الطموحات التى تهدف الى فرض « تسويات » وحلول على الدول العربية والفلسطينيين بصورة خاصة وهي تسويات فى صالح (اسرائيل) ٠ وهكذا يجب ازالة هذا الشخص المضايق الذى يقلق سلام الخطة ، من أجل ان يتمكن المخطط من دفع العرب الى التنازل عن حقوقهم الى (اسرائيل) ٠

(2) اذا تمكنت مصر من وضع يدها على حقول النفط الليبية ، فستجد وللمرة الاولى الامكانات للخروج من محنتها وصعوباتها الاقتصادية ٠ وهكذا سيمكن توطيد وتعزيز تسلط السادات الى فترة أخرى ٠ كما ان احتلاله لليبيا سيؤمن له موقعا ومكانة جيدة قد يمكنه بواسطتها مواجهة المعارضة فى الدول العربية على تراجعه فى المشكلة (الاسرائيلية) وربما التغلب على تلك المعارضة ٠

(3) يمكن تدمير اجزاء من الاسلحة السوفييتية الحديثة المتواجدة الآن فى ليبيا أو اغتنام قسم منها ٠ وهكذا لا تستطيع ليبيا ان تقوم بمراقبة سفن الاسطول الاميركى التى تقطع البحر المتوسط بواسطة اجهزة الرادار والمعدات الالكترونية التى قدمها الاتحاد السوفييتى ٠

(4) ستنتهى بذلك أيضا المساعدات والسند الذى تمده ليبيا الى عدد من حركات التحرر فى افريقيا وانحاء العالم الاخرى ٠

(5) سيمكن للولايات المتحدة استعادة القواعد العسكرية الجوية مثل ويلاس فيلد والتى سبق للقذافى ان طردها منها ٠

(6) سيمكن وعند اقتضاء الحاجة توجيه النفط الليبى الى الولايات المتحدة وقطعه عن الاوروبيين ، اذا لم « تتحـرك » الدول الاوروبية الغـربية وفقا لمـا تشتهيه الولايـات المتحـدة ٠

(7) بعد توطيد تسلـط السادات على ليبيـا وبمساندة الولايات المتحدة ، سيمكنـه وبمساعدة الملك الحسن فى المغرب من « حصار» الجزائر الدولة المصدرة للنفط والعمل خطوة فخطوة على ازالة استقلال الجزائر ٠

وبذلك يتم التوصل الى الهدف ، وهو وضع الساحل الجنوبى من قناة السويس وحتى مضيق جبل طارق تحت يد الولايات المتحدة أو وضع المنطقة تحت مناطق النفوذ السياسى الاميركية ٠ ويبدو ان الوصول الى تلك المناطق أصبح ضروريا للاميركان نظرا للتطورات الجارية فى ايطاليا وفرنسا وشبه جزيرة ايبيريا فى اتجاه حكومات اشتراكية والتى لن تكون مشجعة لحلف شمال الاطلسى ـ وعلى عكس ما يدعى الآن ٠ كما ان حلول حكومات اشتراكية فى المنطقة ان لم يكن حالا ، فهو خطوة مبدئية وفعلية على طريق الخروج من التحالف مع الولايات المتحدة والخروج من تسلطها ٠

التطلع الى أشيـاء أخـرى ٠٠٠

ان سيطرة الولايات المتحدة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط سيجلب فوائد مهمة أخرى للولايات المتحدة ٠ فهي ستكسب بذلك موقعا يمكنها منه ان تتدخل بشكل فعلى ومؤثر فى التطورات الجارية فى افريقيا ٠ ان المساعدة العسكرية التى قدمها الملك الحسن مثلا الى الرئيس موبوتو يمكن اعتبارها مثلا صغيرا لتلك الامكانات التى يمكن افتتاحها لو سيطرت الولايات المتحدة على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ٠ وبذلك تكون الولايات المتحدة قد حشرت نفسها بين أوروبا والدول العربية وافريقيا وان تصبح فى وضع يمكنها فيه عرقلة المساعى الهادفة الى ايجاد تعاون مشتـرك بين أوروبا والدول الافريقية ، بعيدا عن أي تسلط آخر من الشرق أو الغرب ٠ ان ذلك الجزء من العالم الثالث فى الشرق الاوسط والذى يسكنه حوالى 140 مليون عـربى ومعه كافة الامكانات المالية التى تؤمنها عوائد النفط ، كان وسيكون خلال العشـر سنوات القادمة من أهم المناطق فى العالم من ناحية التنمية أو التطور ٠ فهذه المنطقة تعتبر فى مجرى تطورها والبناء القائم فيها سوقا كبيرة لا مثيل لها بالنسبة للـدول الصناعية ، التى بدأ اقتصادها وضمن النظام الاقتصادى الحالى المسمى (بالاقتصاد العالمى الغربى) بالتراجع والتى تشير كافة الدلائل الى استمرار تراجعه فى المستقبل

أيضا ، اذا لم يتمكن الاقتصاد الغربى من الحصول على المزيد من عقود التجهيزات والمساهمة فى عملية البنــاء فى العالم الثالث · وتقــف الولايات المتحدة ، الدولــة الصناعية الكبيرة ، والتى كانت سابقا لا تعتمد على التصدير بهذه الدرجة ،موقف المنافس لدول أوروبا الغربية واليابان ·

هــرب السادات نحو الامــام ···

انه لمن سخرية القدر والتاريخ الدولى ان يقف عامل خلقته الامبريالية الاميركية للدفاع عن مصالحها فى الشرق الاوسط ، اليوم فى وجه وطريق تنفيذ المخطط الاميركى الموضوع : وهذا العامل هو (اسرائيل) · فمن أجل كسب العرب الى جانبهم وهــم الاكثر أهمية فى المنطقة ، كان بامكانهم التخلى عن (اسرائيل) ·

وفى الحقيقة ان هذا الامر يتطلع اليه الكثير سرا ، لان فى هذه الحالة ســوف لن تكون جبهة مقاومة بعد من ليبيــا والعراق والفلسطينيين ضد سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط · باستطاعة المرء ان يكسب كافة العرب كاصدقاء وليس عددا قليلا منهم والذى تم كسبهم حتى الآن كأصدقاء وبناء على وعود فقط · فسوف لن يكون هناك « قذافى » أو « حزب بعث فى العراق » يقاومان تلك السياسة ، التى تدافع عن وحدة العرب القومية والتى تساهم بحيوية من أجل تحقيق تلك الوحدة · لكن مثل هذه السياسة تبدو اليوم بالنسبة للولايات المتحدة وكذلك فى المستقبل القريب غير ممكنة اطلاقا · فلا تتمكن واشنطن من استخدام أي ضغط كان نوعه على الدولة الصهيونية وحملها على القبول بالمطالب العربية الضرورية والتى لا تعرف التسوية ·

ولذا فان مواقف اصدقاء أميركا ـ مثل أنور السادات ـ ستظل دوما مهــددة كما أن هذه المواقف ستتعرض الى النسف التام فى تلــك اللحظة التى يثبــت فيها ، وبعيدا عن اية شكوك بان الولايات المتحدة لن تنجز ما وعدت به ·

وهكذا نتمكن من توضيح النقطة الزمنية التى جاء فيها أمر الهجوم من السادات على ليبيا · فقد جاء هذا الامر فى تلــك اللحظة التى عاد بها مناحيم بيجن محمــلا « بالهدايا » من زيارته الى الرئيس الاميركى كارتر ، وعندما بدأ حتى المتفائلون انفسهم فى الجانب العربى بالادراك بان الورقة الاميركية ليست رابحة أبدا وليس لها أي مفعول · وبذلك أصبح موضوع ازالة القذافى وهو احد المعارضين الاشداء موضوعا حيويا : وهكذا لجأ السادات الى الهروب نحو الامام ·

كانت العملية المصرية هذه محضرة أولا وذلك بتركيز وتجميع قوات مصرية على الحدود الليبية وبعد اتفاق تم بين السادات والرئيس السودانى النميرى والملك الحسن الثانى ملك المغرب · فوضع النميرى قاعدة خاصة تحت تصرف السلاح الجوى المصرى للقيام بغارات وهجوم جوى على الواحة الليبية « كفرا » ، كما وعد الملك الحسن القيام بعمليات عسكرية للمساندة فى حالة تحرك الجزائر لمساعدة ليبيا · وهناك معاهدة منذ 1975 وقعت بين الجزائر وليبيا بخصوص الدفاع المشترك ، وتشير هذه المعاهدة الى أن أي اعتداء أو هجوم على احدى الدولتين ، يعتبر فى نفس الوقت اعتداءا وهجوما على الدولة الثانية · وهكذا كانت الكلمات التى نقلها ياسر عرفات بعد لقائه مع بومدين الى الرئيس المصرى السادات بوقف اطلاق النار وايقاف العمليات ضد ليبيا فورا أكثر من مجرد كلمات عادية · ولكن الاميركان وكما يبدو كانوا قد قدموا المساعدة للسادات فى هجومه هذا قبل وبعد بدء العملية ، لان ليبيا قامت باسقاط أربع طائرات استطلاع أميركية (3)

واذا كانت عملية السادات قد انتهت الى فشل ذريع ـ لانه قد ألحقت بالمصريين خسائر فادحة اثناء الهجوم لم يتوقعوها أبدا ، وقد اظهرت هذه الخسائر للسادات ان الطريق الى طرابلس لن يكون جولة نزهة أبدا ولان كلمات بومدين قد أفزعت السادات ، لانه ، أي بومدين رجل يعرف ما يقول ولا يسمح لنفسه بالتلاعب كما انه يدرك بالضبط ما هي الاخطار التى تهدد الجزائر ، نقول اذا كانت عملية السادات قد فشلت ، فلا يعنى ان المخطط الاميركى باكمله قد فشل ، ففى هذا المخطط طموحات أكبر وأهداف أبعد ولا يعنى فشله فى المرة الاولى استحالة استخدامه مرة ثانية وفى أول مناسبة تتاح لذلك ·

العـــــراق :

لنعـد مرة ثانية الى المخطط الاميركى العام ، حيث يرمى هذا المخطط الى جعل كافة منطقة الشرق الاوسط ضمن مناطق النفوذ الاميركى ·

---

(3) بعد ذلك بايام قليلة اعلن الرئيس كارتر بانه يرغب بامداد مصر بمعدات عسكرية بقيمة 200 مليون دولار ، ومن هذه المعدات طائرات استطلاع ذاتية · ويبدو ووفقا للاوضاع الحالية ان الطائرات كانت قد جهزت سرا الى مصر قبل ذلك التاريخ وبان كارتر يحاول ان يحصل على موافقة الكونجرس على ذلك لا حقا فقط ·

ولاجل تحقيق ذلك وضع المخطط دولة عربية أخرى فى القائمة وبعد ان ارتـأى المخطط طبعا ترويض الجزائر وليبيا : وهي الجمهورية العراقية والتى ذكرها كارتر مباشرة فى حديثـه وكما أوردناه فى مقدمة المقـال ٠ ان محاولة قلـب الاوضـاع السياسية فى العراق تعود الى ايام جون فوستر دالاس والرئيس الاميركى السابق ايزنهاور ، عندما نزلت قوات الاسطول الاميركى فى لبنان بعد ان قام الجنرال قاسم فى عام 1958 باسقاط المملكة الهاشمية الموالية للغرب فى العراق ، وكانت الغاية من الانزال تهديد الثورة العراقية ومنع انتشارها المحتمل الى الاردن ٠ وبعد ان استلم حزب البعث العربى الاشتراكى والذى لـه أهداف قومية عربية مشتركة السلطة فى العـراق أصبح العـراق موطنا محببا وموقعا استهدفته سيـاسة العرقلة والتخريب الاميركية حيث استخدمت هذه السياسة ولمدة أعوام طويلة القائد الكردى مصطفى بارزانى ، وبالتعاون مع شاه ايران ، لتنفيذ مخططاتها ، وقد وجب أخيرا التخلى عن تلك السياسة والاعتراف بعدم جدواها عندما نسف شاه ايران قاعدة تلك السياسة وانهى خـلافه مع العراق ٠ ولكن على الرغم من ذلك ظـل العراق فى نظـر موجهى السياسة الاميركية وهو تلك الدولة الغنية بالنفط التى تشهد حاليا انطلاقة سريعة ونهوضا اقتصاديا كبيرا ، والى جانب ليبيا ، العدو الرئيسى للامبريالية الاميركية ، سيما بسبب دوره فى منظمة الاوبيك وسياسته فى عدم الانحياز وخطه الواضـح المعادى للامبريالية ومساندته للفلسطينيين والحركات التحررية الاخرى ، ونظـرا للطابع الثورى والاشتراكى لحزب البعث ، وتأثيرات ذلك على الدول العربية الاخرى ٠

ضد خط الحيـاة الاوروبى ٠٠٠

فى الوقت الذى بدأت فيه أهداف السياسة الاميركية فى الشرق الاوسط بالاتضاح تدريجيا بخطاها المنفردة ومنذ أيام هنرى كيسنجر ، حيث كان الحديث يدور دومـا حـول مساعى السـلام فقط وليس أبـدا عن أهـداف استراتيجية وبعد ان انكشفت الدبلوماسية الإميركية وبان فى ضوء ذلك المخطط الكامل الموضوع ، بعد كل ذلـك يبدو ان المرء فى أوروبا غير قلق لهذه الاحداث ٠

وعلى العكس من ذلك يجرى التعليق على المساعى الاميركية هذه بأنها محاولة للتخفيف من حدة التطرف والحد من نفوذ المتطرفين فى المنطقة وهي فى نفس الوقت مساعى لمساندة « المعتدلين » من العرب ، لاجل الوصول بذلك الى السلام المنشود فى الشرق الاوسط ٠ وبغض النظر عن ان امكانية التوصل الى سلام دائم عن هذا الطريق

معدومة تماما أو عديمة الاحتمال ـ حيث تزداد الاشارات التى تؤكد الاتجاه المعاكس ـ فسيكون من السذاجة والبساطة ان نقبل أو نصدق بان للسياسة الاميركية فى الشرق الاوسط أهدافا ودوافع انسانية أو خيرية ، تلك الدوافع التى تعلق على شكل تصريحات من مشرعى ومنفذى تلك السياسة ـ وليس منذ ان تولى كارتر السلطة فحسب ـ ان الموضوع هنا هو موضوع سياسة تسلط ، وليس شيئا آخرا ومهما تزايدت الدعوات والتوجهات الى الله ٠٠٠

ولكن حتى الذين كشفوا السياسة الاميركية وصفقوا لها على الرغم من ذلك هم خاطئون ٠ فمنهم من يعتقد بانه يجب على المرء تأييد ومساندة الطموحات الاميركية هذه لانها تحاول ايقاف السوفييت وتحديد توسيع نفوذهم وهم يغفلون بانهم بذلك يجلبون النفوذ السوفييتى الى مناطق لم يتواجد فيها سابقا ، لان المرء يريد من هذه المناطق ان يكون مستقلا من أي تعلق بالسوفييت أو الولايات المتحدة ، انظر مثلا الى ليبيا ٠ ان من يكون ضيق الافق ويعتقد بان نفوذ الرأسمالية الاميركية هو أمر يخدم العرب ومصالحهم الخاصة وبأنه أمر أكثر فائدة وخدمة لهم من استقلالهم وحريتهم وبأنه سيكون أفضل للعرب ان يقبلوا بنفوذ الرأسمالية الاميركية من القبول بحكومات اشتراكية أو وطنية ، نقول ان الذين يعتقدون ذلك سيصحون يوما واذا تحقق ذلك فعلا فسيشهدون نهاية مؤلمة وقاسية ٠

لان أوساط التسلط فى الولايات المتحدة تريد التسلط وبسط نفوذها على النفط العربى وعلى الحصول على نصيب الاسد فى عملية تصنيع وبناء العالم العربى التى ستستمر عشرات الاعوام الاخرى ٠ وبالنسبة لتلك الاوساط المتسلطة فى الولايات المتحدة ، فان حصة أوروبا واليابان ـ حاليا من المساهمة فى عملية التصنيع والبناء هذه هيْ كثيرة وكثيرة جدا وعليه يجب تغيير ذلك ٠ وهذا بالذات ما هو مثبت فى الاستراتيجية الاميركية وهذه الاستراتيجية موجهة ضد أوروبا ٠

ربما اعطى ذلك الدافع للسادة رجال الصناعة الالمانية الاتحادية فرصة التفكير ، اما زملاؤهم فى فرنسا وايطاليا ، فيبدو أنهم سياسيا أكثر حذرا ويقظة من الالمان ٠

ان الطابع المعادى لاوروبا الذى يتضمنه المخطط الاميركى فى الشرق الاوسط يتضح فى معناه السياسى الدولى عندما ننظر الى الهدف السلبى لهذه الاستراتيجية الشاملة : فهو يهدف الى عرقلة التطور الطبيعى فى المنطقة وحتى نسف هذا التطور ومنعه ٠ ان هذا التطور نابع من أوجه اقتصادية مشتركة تكمل بعضها البعض وتعتمد

على بعضها البعض والتي تهدف الى ايجاد تعاون مشترك أوثق بين الشمال والجنوب وعبر البحـر المتوسط وذلك بين الدول الاوروبية الصناعية والدول العربية النفطية والدول النامية الاخرى فى افريقيا ٠ وهو تعاون أخذ يزداد على الصعيد السياسى ويعمل على تحرير شعوب هذه المنطقة من رأس الشمال الى رأس الرجاء الصالـح وهو تعاون يفـرز دول هذه المنطقة ويضعها خـارج خلافات وتناقضات المعسكرين الشـرقى والغـربى ٠

عبد الكـريم بن الفقـون القسنطيـنى

(988 ـ 1073)

والتعريف بتـأليفه : منشور الهـداية ، فى كشف حال من ادعى العلـم والـولاية

المهـدى البوعبـدلى

بحاثـة فى التاريخ ـ الجـزائر



اخترت موضوع هذه الدراسة لدراسة حياة علـم من اعلام الجزائر ، نـال الشهرة والاعجاب مـن نخبـة معاصريه ، وهو مـن مواليد هذه العاصمة العلمية كمـا سأتنـاول بالبحث والتحليـل ، تأليفه القيم ، النـادر المثال فى موضوعه ، لا على المستوى الوطنى بـل علـى مستوى الادب العربى العام ، وهذا التأليف هو منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية .

ينحدر مترجمنا عبد الكريم ابن الفقون ، من أسرة علمية شهيرة توارث أفـرادها العلم والمجد قرونا بمدينة قسنطينة ، وقد نوه به كثير من معاصريه ، امثال الرحـالة المغربى ابى سالم العيـاشى ، واحمد المقرى التلمسانى ، وغـيرهمـا ، كمـا حـظى كثير من أفراد أسرته بتراجم اضافية من أئمة العلم والادب ، ابتداء من عميد الاسرة ابن على حسن بن على بن محمد الفكون صاحب الرحلة المنظومة ، التي ضمنها رحلتـه من قسنطينة الى مدينة مراكش لما ذهب اليها فى أواخر القرن السادس ، عند ما كانت عاصمة الدولة الموحدية وقد تسابق مؤرخو الادب العربى الى نشرها ، والاشـادة

محاضرة ألقاها بكليـة الشعب بقسنطينة بتاريخ 17 محـرم 1397 هـ الموافق لـ 6 جـانفى 1977 .

بصاحبها ، وهى التى افتتحها بقوله :

ألا قل للسرى بن السرى ابى البدر الجواد الاريحى

الى ان يقول :

فجئت بجاية فجلت بدورا يضيق بوصفها حرف الروى
وفى أرض الجزائر هام قلبى بمعسول المراشف كوثرى
وفى مليانة قد ذبت شوقا بلبن العطف والقلب القسى

الخ ...

تشتمل هذه المنظومة على اثنين وثلاثين بيتا ، وكان الفضل فى نشرها ، والتنويه بقيمتها ، للرحالة أبى عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى فى رحلته المغربية التى ابتدأها سنة 688 هـ ، ثم تناقلها كثير من مؤلفى تاريخ الادب العربى .

ولنرجع الى الحديث عن مترجمنا ، فانه كان من مواليد أواخر القرن العاشر الهجرى ، وبالضبط من مواليد سنة 88 9 هـ قرأ بقسنطينة التى كانت آهلة بالعلماء ثم استفاد من رحلاته الى الحج ، حيث كان يرافق والده أمير ركب الحج ، قبل ان يستقل بها بعد وفاته ، فكان يذهب الى الديار المقدسة سنويا ، كانت خطة امارة ركب الحج لا تسند الا لامثل عالم ، تراعى فيه عدة مقاييس ، أهمها التبحر فى العلم والاستقامة ، اذ هو الممثل لبلاده ، ولنخبة علمائها ، حيث يجتمع بجل علماء الاقطار الاسلامية ، ويتبادل معهم الاجازات والتآليف ، ويشارك فى المناظرات العلمية التى كانت تعقد لحل المشاكل العويصة ، فكانت مهمة أمير الركب فى رحلاته الافادة والاستفادة .

تولى مترجمنا هذه الخطة التى خصصها ولاة قسنطينة الاتراك لافراد أسرته بداية ، من تولية جده عبد الكريم بن يحيى سنة 975 هـ . الذى ولاه الاتراك بعد احتلالهم لقسنطينة ، اعترافا بموقفه البطولى الذى سهل للجيش التركى احتلال البلدة ، وذلك ان قسنطينة كانت تابعة اذ ذاك للدولة الحفصية ، وكانت قاعدة

الدولة الحفصية بتونس ، وعندما احتل خير الدين باشا تونس استنجد ملكها الحفصى بملك اسبانيا شارلكان لطرده منها ، اتخذ الوالى الحفصى بقسنطينة نفس الموقف مع الجيش التركى ، الذى حاول احتلال البلدة فعندئذ تمرد عليه السكان الذين كان على رأسهم العالم الجليل عبد الكريم بن يحيى الفكون ، جد المترجم الذى انتصر للاتراك ، أما الوالى الحفصى فقد آزره شيخ الاسلام عبد المؤمن ، ودامت مقاومته للجيش التركى سنوات ، انقسمت فيها المدينة الى قسمين الى ان تغلب الجيش التركى نهائيا ، وحينئذ قتلوا شيخ الاسلام عبد المؤمن وولوا مكانه ، جد المترجم المذكور ، فتوارث أفـراد الاسرة الفكونية هذه الخطة طيلة العهد التركى ، وفى وصف هذه الاحداث قال المؤرخ القسنطينى الحاج أحمد المبارك فى تأليفه « تاريخ حاضرة قسنطينة » : « ولما وقـع الصلح بين القبائل والاتراك ، اختلف أهل قسنطينة ، فمنهم من اذعن للاتراك ، ومنهم من امتنع ، وكـان رأس المتنعين الشيخ العالم سيدى عبد المـؤمن ، وراس الراضين بدخول الاتراك ، العالم الجليل سيدى عبد الكريم الفكون ، ونزل الاتراك بسطـح المنصورة ، وشرعوا فى بنـاء قصبة هناك لعسكرهم ، وأظهروا العـدل والسياسة ، وخالف سيدى عبد المؤمن ، وأهل حومة باب الجابية على الترك ، وقابلوهم ثلاث سنين ، الى أن تحيلـوا عـلى الشيـخ سيـدى عبـد المـؤمـن ، وكانـت لـه مشيخـة البلـد ، فصـالحوه ، ولـم يـزالوا ينصبـون لـه حبـائل المكـر والخـداع ، حتى تمكنوا به ، دعوه لضيافة بقصبة المنصورة ، فأجابهم ، وخرج اليهم آمنا فقتلوه ، وسلخوا جلده ، وملأوه قطنا وبعثوا به الى الجزائر ، ودفنت جثته بمسجده المعروف به اليوم ، فلما قتله الاتراك ردوا مشيخة الاسلام وامارة الركب الى ابن الفكون » .

كثيرا ما اشتبه على المؤرخين مترجمنا بسميه الذى هو فى الحقيقة جده ، أى والد والده وقد توفى الجد فى نفس السنة التى ولد فيها مترجمنا أى سنة 988 هـ . كـان المترجم كما ذكرنا من أكابر علماء عصره المشهورين ، قضى عمـره الطويل فى خدمة العلم . ولم تمنعه خطة مشيخة الاسلام ، ولا عبء امارة ركب الحج التى كانت تلـزمه التردد الى الديار المقدسة سنويا . لم تمنعه من خدمة العلم بالتدريس والتأليف . كما اعترف له بذلك جل مترجميه . ذكره أحمد المقرى التلمساني فى نفح الطيب ، فقال

« عالم قسنطينة ، وصالحها وكبيرها ومفتيها ، سلالة العلماء الاكابر ، وارث المجد كابرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ سيدى عبد الكريم الفكون حفظه الله » . وقال أبو سالم العياشي في رحلته يصفه في أخريات حياته ، « وكان رضي الله عنه في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ، ومجانبة علوم أهل الرسوم ، بعد ما كان اماما يقتدى به فيها . وله في كثير منها تأليف ، شهد له فيها بالتقدم أهل عصره ... الى أن يقول ... ومروياته رضي الله عنه مستوفاه في فهرسة شيخنا أبي مهدى عيسى التعالبي ، فنحن نروى عنه جميعا » اهـ . كما ترجمه المؤلف اجازته لصاحب الزهرات الوردية في الفتاوى الاجهورية : « ولما أراد الله سبحانه وتعالى الاجتماع بشيخ أهل المغرب ، الشيخ الامام ، العالم الهمام ، صاحب التصانيف النافعة ، والبراهين القاطعة ، سيدى الشيخ ابن محمد عبد الكريم ابن محمد القسنطيني حفظه الله تعالى ورعاه ، حال رجوعه من الحج الشريف ، وكان ذلك في مستهل ربيع الاول سنة خمس وأربعين وألف ، التمس مني ان أذكر له اسنادى في الحديث والفقه والاجازة فيهما وفي غيرهما بعد ما التمست منه الاجازة في مصنفاته وغيرها » اهـ .

وقد توارث أفراد الاسرة كما سبق لنا مشيخة الاسلام طيلة العهد التركي ، وكان آخر من تولاها محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذى ادركه الاحتلال الفرنسي ، وهو يناهز الثمانين سنة ، اذ توفي سنة 1256 هـ . أى بعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة الذى وقع سنة 1252 هـ ، وقد ذكر المؤرخ الجزائرى ابو راس الناصرى (1) في رحلته : شيخ الاسلام محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذى نزل عنده ضيفا في رحلتيه الى المشرق ، في أوائل القرن الثالث عشر الهجرى وأثنى عليه ، وأشاد بأفراد أسرته ، وامتازت هذه الاسرة بامتلاكها الخزانة كانت أهم الخزائن الجامعة لنوادر المخطوطات شرقا وغربا ، ونوه بها كثير من العلماء - مسلمين وأجانب . هذه في الجملة الخطوط العريضة من حياة مترجمنا ذكرناها بايجاز . أما تأليفه ، فان الكثير منها كان في الحديث والفقه واللغة ، وقد استوعب ذكرها في

(1) ابو راس الناصرى الراشدى (1165 - 1237 هـ) رحل الى المشرق مرتين الاولى سنة 1204 هـ ، والثانية حوالى 1226 هـ .

تأليفه (منشور الهداية) ، كما تعرض لذكر بعضها ، الرحالة أبو سالم العياشى فى رحلته ، فاعترف بها ، وكان فى طليعة التآليف التى تناولها بالنقد والتحليل كتاب « محدد السنان فى نحور اخوان الدخان » موضوعه الرد على معاصريه الذين افتوا بجواز التدخين ، بعد أن افتى هو بتحريمة ، وكان من ضمن المفتين بالجواز ، الشيخ على الاجهورى المذكور سابقا ، وقد لخص العياشى كتاب « محدد السنان » هذا فى عدة صفحات من رحلته ، كما حلل فى الرحلة المذكورة ديوان شعره وبعض تآليفه التى اطلعه عليها ولد المترجم ، الذى خلف والده فى امارة ركب الحج ، وكان العياشى يجتمع بـه فى رحـلاته .

وننتقل الى الحديث عن التأليف الذى تعهدت بالتعريف به ، وهو « منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو كما ذكرنا من التآليف القيمة التى لها وزنهـا وفـوائـدها .

وقبل أن ندخل فى صميم موضوع التعريف به ، وتحليل بعض جوانبه ، نـذكر الاسباب الداعية الى تأليفه حسبما ذكرها المؤلف فى تقديمه ، كما لا يفوتنا ان نلفت نظر القراء الى ان حالة البلاد فى عهد المؤلف ، كانت سيئة جدا ، فقد نالت حظها الوافر من التدهور والفوضى اثر استئنـاف غارات الحروب الصليبية وشـن هجوماتهـا على مدن شواطىء البحر الابيض المتوسط التى سقطت الواحدة بعد الاخرى ، مثل سبتة ومليلية ووهران ، وبجـاية ، وتونس ، وطرابلس ، وما نجـم عن ذلـك من الفتـن والاضطربات التى انتشرت داخل البلاد ، هذا وان كانت مدينة قسنطينة تحصنت بموقعها الجغرافى ونجت من غارات الجيش الصليبى ، فان موقف واليها الذى تعرض لدخول الاتراك ، وتمرد السكان عليه ، اعقبه تفكك عرى الادارة الحفصية ، وفقدت نفوذها داخل البلدة وخارجها ، فاغتنم هذه الفرصة رؤسـاء الاقطاع ، فاستقـل جلهـم بمناطق نفوذهم ، وصاروا يحاربون بعضهم بعضا ، فانتشرت الاهوال والفتن ، وفقد الامن ، وكانت من جملة الاوضاع التى تغيرت وضاق بها مترجمنا ذرعا ، الحياة الدينية والدين والثقافة فى ذلك العهد ، كانا متلازمين اذ لا يتصور الناس ، ولا يعترفون أو يطلقون اسم العالم الا اذا كان العـالم دينا ، وكان النفوذ الدينى لطبقتـين ، الطبقـة

الرسمية الشاملة للقضاة والمفتين والمدرسين ، والطبقة الملحقة بالرسمية ، وهـي طبقة رجال الزوايا والمتصوفين والعلماء الغير المتوظفين ، وسلالة البيوتات المنسـوبة للشرف ، وفي الغالب ان أفراد هذه الطبقة الثانية كانت علائقها حسنة مع السلطات التي كان لها دخل في تعيينهم أو عزلهم فالمؤلف كما نرى شاهد تغير الاوضاع المذكورة ، حيث صار كثير من أفراد الطبقة الاولى كالقضاة والمفتين والمدرسين يتولون هـذه المناصب من دون استحقاق ولا كفاءة ، وانما ينالونها بالرشوة ، أو المحسوبية ، وكذلك كان الامر بالنسبة لرؤساء الدين ، المدعين للصلاح والولاية ، ومعظمهم من رؤسـاء الطرق ، فركز مترجمنا تأليفه هذا « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العـلم والولاية » ، على هذه الطبقات أي الموظفين ، ورؤساء الدين ، وابناء البيوتات المنسوبة للشرف ، ضمن محتوى التأليف الذي كان الهدف منه ، ترجمة علماء البلاد المعاصرين ، على عادة علماء التراجم والطبقات ، وقد بين ذلك في تقديم تأليفه حيث قال « اما بعد فلما رأيت الزمان بأهله تعثر ، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر ، وسحائـب الجهل قد أظلت ، وأسواق العلم قد كسدت ، فصار الجاهل رئيسا ، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا ، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح ٠ واعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرد من المولى فائحة ، الا انهم اعني الطائفتين تمسكوا من دينهم بمناصب شرعية ٠٠٠ فموهوا على العامة باسماء ذهبت مسمياتها ، واوصاف تلاشت اهلها ٠ منذ زمان واعصارها ٠٠٠ والطائفة الاخرى سطرت اناملهم في قراطيس السجلات ، ما يوهم من لم يوهم ، ممـن ياتي في غابر الزمن انهم من حزب العلماء، بـل ومن مشائيخهم الاعلين ، كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء ، ان ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم ، أو يذكروا في معرضهم ، وغيرة على جناب السادة الاولياء ان تكون اراذل العامة ، ونذار الحمقى المغرورين ان يتسموا بأسمائهم ، أو يظن بهم اللحوق بآثارهم ٠

ولم أزل في التنفـير من كلتا الطائفتين ، والتحذير منهم في كل زمان وأوان ، وبين كل صالح من الاخوان ٠٠٠ الى أن يقول ٠٠٠ فشرح الله صدري ، في أن اعتكف على تقييد يبدي عوارهم ، ويفضح أسرارهم ، ويكون وسيلة الى الله في الدنيا والاخرى ٠٠

فهذا الجهاد الذى هو احد من السيف فى نحور اعداء الله ، وناهيك بهم اعداء ، نسخوا شرع سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم بآرائهم المسطرة باقلامهم فى سجلاتهم ، وأحلوا الرشى بافعالهم ، والتمدح بها ، والعكوف على طلبها ، والاعتناء باخذها فى انديتهم ، فهى عندهم ارفع المكاسب ، وأسنى المطالب » انتهى .

نقتصر على هذه الفقرات التى ذكرها المؤلف فى مقدمة التأليف ليبين منهاجه فى تأليفه ، وكشف مثالب بعض مترجميه ، وقد قسم تأليفه الى ثلاثة فصول وخاتمة . فالفصل الاول ترجم فيه للعلماء الذين اتخذهم قدوة ، من حيث الصدق والصلاح والنزاهة وجعلهم من علماء القرن التاسع الهجرى .

والفصل الثانى ترجم فيه للعلماء الذين تولوا الوظائف الدينية ، والشرعية ، والعلمية ، كالافتاء والقضاء ، والتدريس ، من دون كفاءة ، واتخذوا للتحصيل عليها وسائل دينية .

والفصل الثالث خصصه لرؤساء الدين المنحرفين وهذا الفصل هو الذى ينطبق على مترجميه عنوان التأليف « كشف حال من ادعى العلم والولاية » . اما الخاتمة فقد خصصها لمن كان لهم به اتصال ومعاصرة ، وأهم ما فى هذه الخاتمة ترجمة أحمد المقرى التلمسانى ، الذى رغم اهتمام الباحثين بترجمته ، بقيت جوانب منها مجهولة فى تفاصيلها ، كاقامته بمدينة الجزائر فى طريق رحلته من المغرب الى المشرق ، واتصاله بعلمائها ، وكذلك مروره على تونس ، ومرافقته لاحد كبار علمائها الى المشرق ، ثم ان التأليف يحتوى على صفحات من تاريخ الجزائر وتونس ، وذكر الاحداث التى تعرضت لها البلدان اذ ذاك ، وهى مرتبطة بتراجم كثير من العلماء المذكورين فى التأليف ، وذلك كاستعراض لبعض الثورات فى جبال الاوراس ، والوصف الدقيق للمعاهد العلمية والقرآنية ، واحصاء رؤساء الاقطاع ، وتمردهم على الحكام واتخاذهم بعض رؤساء الدين آلات لجلب السكان ، وترضيتهم كما تعرض للقبائل التى كانت تحترف النهب والسلب وقطع الطريق على القوافل التجارية التى كانت تتردد من شمال البلاد الى جنوبها ، ثم استمرار الاتصال المتين بين علماء البلاد ، ذلك الاتصال الذى كان من

أسباب تمتين الوحدة الثقافية بين البلدان الاسلامية بصفة عامة ، وبلدان المغرب العربى بصفة خاصة ، كما سنبين ذلك بمزيد من التفصيل فى موضعه من هذه الدراسة ٠

كان المؤلف يدرك أنه لم يسبق الى مثل صنيعه فى طريقة تأليفه ، أو بلغته بعض انتقادات معاصريه ، حيث تعرض باسهاب الى الحياة الخاصة ، والعامة لكثير من مترجميه فلذلك نجده يقدم اعتذاره ليبرر به عمله ، مثل قوله « يهجس فى النفس بأن ذكر هؤلاء فى الاوراق والاعشاء بهم فى الكتب ، تنويه بذكرهم ، وترفيع لقدرهم ، واهمالهم أولى ، وعدم التعرض لذكرهم أحق وأجلى ، الا أن النصح العام ، هو الملجى لذكرهم والغيرة على حمى الله ورسوله وبساط اوليائه واصفيائه ، ان يدعى جلوس مثل هؤلاء عليه ، هو الموجب للتعرض لهم ، ولى فى هذا سلف من خير سلف ٠ لقد أوضحت علماء الدين ، وأئمة المسلمين ، نقلة حديث من يصح النقل عنه ، ومن لا يصح » ، من هذه الفقرة الاخيرة ، يتاكد لدينا ، ان المؤلف لم يطلع على من سبقه من المؤلفين، الذين طرقوا موضوع تأليفه ، فجعل قدوته فى ذلك ، واسوته فيه علماء الحديث ، الذين فتحوا باب التعديل والتجريح على مصراعيه لرواة الحديث ، ورجال السند ، بقى هذا التأليف مغمورا ، ولم نطلع على ردود فعل ضحاياه ، اللهم الا ما ذكره صاحب منظومة « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » المشهورة بالالفية ، للعالم الشهير ، الشيخ أحمد ساسى البونى ، وهذه المنظومة ، جمعت بين ما اشتهر فى ذلك العهد من نظم التاريخ الجهوى ، والاستغاثة بالصالحين ، وقد خصصها صاحبها لذكر علماء بونة ونواحيها ، وللعلماء الواردين عليها ، وعند ما ترجم لجده محمد ساسى ، وتعرض لذكر محاسنه ، نفى عنه تهم ابن الفكون ، التى ذكرها فى «منشور الهداية» عند ما ترجم للشيخ طراد دفين نواحى بونة ، واتهمه بالزندقة ، والتدجيل ، فقال انه من جملة من تتلمذ له محمد ساسى خطيب جامع عنابة اذ ذاك ، ومحمد ساسى هذا هو جد صاحب « الدرة المصونة » التى قال فيها صاحبها احمد ساسى بعد ان عرف بجده فى قوله :

بجده محمد ساسى جد الفقير العارف المواسى
وفضله اشهر بين الناس من نونبراس لدى العسعاس
من جدد العلم وقد كان اندرس وقام فيه مخلصا بلا دنس

تعرض التهم ابن الفكون فقال :

طعن الفكون فيه صاح باطل — اذ هو قطب عارف وكامل
فطعنه تحامل وظلم — وعند ربنا تعالى العلم
والقدح فى امثاله حرام — وذا لا ترضى به الكرام
فالحكم العدل تعالى يحكم — بينهما وسيجازى الظالم

وهذا كله لم يمنع أحمد ساسى من الاعتراف لابن الفكون بالصلاح والعلم ، حيث قال فى نفس المنظومة ، عندما تحدث عن علماء قسنطينة الواردين أو المارين على بونة قال :

بسيدى عبد الكريم العالم — الصالح الفكون ذى المكارم
مؤلف التآليف الكثيرة — وكان ذا مناقب اثيرة
بنجله محمد نور الظلام — ابقى الالاه مجدهم على الدوام
وبيننا وبينه قرابة — اربى على الاقران فى النجابة
وعنده الكتب بالآلاف — والمجد تالد بلا خلاف
امير أركاب الى الرسول — سيدنا محمد ذى السول

ولنرجع الى الحديث عن التاليف ، فهو كما ذكرنا تناول فيه تراجم الطبقات الاربع من العلماء الذين كان معظمهم من مدينة قسنطينة ومن معاصريه ، وقد تتبع حياة المترجمين سواء الممدوحين أو المقدوحين بصراحة وتفاصيل لم يتعودها المؤلفون فى التراجم القدامى منهم والمتأخرون ، فهو يذكر المترجم باسمه ولقبه ، واطوار حياته ، من لدن نشاته . ويجسم المحاسن أو المساوى ، وأكثر من حمل عليهم ، هم ممن تربطهم به صلة القرابة أو التلمذة ، كما ان جلهم ، خصوصا قسم الموظفين هم من اعيان بيوتات قسنطينة ، الذين لا زالت بقايا اسرهم الى يومنا هذا ، ومن جملة من تعرض لهم بنقده اللاذع طبقة سماها بالحضر وان مدلول هذا الاسم ، المتعارف عند الجميع يطلق على سكان المدينة العريقين فى التمدن والحضارة ٠ ولكن المؤلف لم يعن من انتقدهم من

أفراد هذه الطبقة بهذا المدلول ، والا فهو وأسرته من اعرق الاسر الحضارية ، حيث استوطنت أسرته المدينة ازيد من خمسة قرون ٠

وقد اعترف بمدلول اسم الحضر الا انه بقى يكتنفه الغموض فقد عرفه عندما ترجم لاحد مترجميه وقال « فوقعت بينهما ألفة الظاهر ، وفى الباطن مختلفان على عادة صنفهم المسمى بالحضر اذ ذاك صفة لهم لازمة ، بمجرى العادة لا تتخلف ، ولو فى النادر ٠ وان كنت اظن تخلفها فى بعض منهم كما اشرت اليه فى تأليفنا « محدد السنان » ظنا منى لمرءاه ، والم اشعر باطنه ، كما يأتى التنبيه عليه ان شاء الله ، فانبهر لى عموم الوصف فى جميعهم الا ان بعضهم يعرف عنه ابتداء ، وبعضهم يخفى ما اكن الى بلوغ قصده » ٠

ثم كرر حملته على الحضر فى موضع آخر من نفس الترجمة وقال : « ورجعت المودة بينهما شحناء ، والمخالفة بغضاء ٠ ومع هذا ففى الحضور تحسبهم جميعا ، وهم بالغاية القصوى ، قلوبهم شتى ، واهواؤهم متبددة ، بود كل منهما وقوع منتهى الشرور بصاحبه ، وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذى يلقب حضريا ، فقد جبلوا على ذلك ، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا محدد السنان » ٠

من هذين الفقرتين يتبين لنا ان مقاييس مدلول اسم الحضر ، بقى غامضا ، اذ كل ما عرفنا به المؤلف هو قوله فى الفقرة الثانية المذكورة ، (وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذى يلقب حضريا ، فقد جبلوا على ذلك ، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا محدد السنان) الخ ٠٠

ثم ذكر فى موضع آخر من التأليف ان هذا الصنف لا يوجد الا فى قسنطينة ، واعطى أمثلة دعم بها دعواه ، هذا وان كانت مسألة الخلاف بين سكان المدن والبدو من جهة ، وسكان المدن القدامى ، والطارئين عليها ، مشهورة فى التاريخ خصوصا فى المدن العريقة فى الحضارة الا ان علماء الاسلام كانوا لا يهتمون بها كثيرا ، ولتتميم الفائدة وعملا بالمبدأ الذى يقول « بالمثال يتضح المقال » نذكر نماذج من بعض التراجم المذكورة ؛ قال فى ترجمة عالم تولى الافتاء والقضاء والتدريس بعد ان اعترف به وباسرته وانه من أقاربه قال « وكان فى أول زمانه ممن احبنا لله وأجببناه فيه ، وكان ذا نجابة فى

أحوال الدنيا ، وطلب رئاستها ، تولى النيـابة عن قضاة العجم يقصد بالعجم (الاتراك) وامتحن من الولاة كثيرا ، وأغرم المال مرات ، وتشكت به العامة ، وكان مقليا عنـد الخاصة ، وينسبون اليه أمورا لا يليق صدورها بعاقل ، وكان يخدم الولاة ، ويغلمهم ، ويمتص نفسه فى موالاتهم ويعطيهم الرشاء وربما يقال فيما اشتهر انه يتوسط لهـ فى ذلك من أهل البلد والرعايا ، وينال هو من ذلك حظا ، وتولى خطة الفتوى فى زمن زكرياء ابن محجوبة ، وكانت له يد عليه فى بعض الاحيان ، الا انه كان يستعين عليه بالجمع الخاص وفريق العامة ، وبعد وفاته استقل برئاستها فى التصدر ، وكان امـى الخطاب والكتابة ، لا يعرف طريق الخط ، ولا يحسن الوسم ، غير عارف بالهجاء حتى انه فى غالب أحواله ، يتفقد من يجالسه من أحبابه مكاتبه ، ليصلح ما فيها من فساد الرسم ، وكان فى ابتداء امره منصفا ، واقفا عندما يحد له) الخ٠٠ثم يذكر فى ترجمة أخرى من هذا القسم ، أى المتولين الوظائف العلمية والدينية من دون استحقاق ، بعد ان اعترف بمترجمه وباسرته ، « واما تكالبه على الدنيا ، وانكبابه عليها فهو اشهر من ان يذكر ، واوضح من ان يسطر فتراه فى جمعها يرتكب أمورا لا يبالى بها من ضعة ، أو هلكة ، ولا عليه ان تكون من حل أولا ، حتى تحقق فيه وعيد حديث « من لم يبال من اين مطعمه ومشربه ، لم يبال الله أى باب من أبواب جهنم يدخله » هذا مع تغـيره للشريعة وتجاهره بالرشاء ، وجمع حطام الدنيا ، وعدم اكتراثه بالاوامر الشرعية ، وتسويغه للعامة ، أو من كان على شكله من الخاصة أمورا لا يرضاها من فى قلبه مثقال حبة من ايمان ، وتسهيله لهم الامور الشاقة فى النواهى والزواجر ويهتك حدودها قولا وفعلا ٠٠٠» الى أن يقول ٠٠٠ «اما العمل فلاحظ له فيه ، الا ما سطر من مساويه ، واما العلم فهو اجهل ممن رايت ، واحمق ممن لاقيت وان كان يتصدى لاقراء المختصـر والرسالة ، واعجب من ذلك ، تعاطيه لابن الحاجب فى ناديه ، مع جمع عمتهم الجهالة ، فلو كان فى زمن محتسب لله لكان له معه شأن» ، ثم يقول بعد ذلك ٠٠٠ « ولعمرى لا يصلح لان يقعد بين العلماء فضلا ان يتسمى بالعلم ، واحرى ان يتصدى للتدريس لكن غباوة الجهل ، وقلة الحياء من الله ، وخراب البلدة ، وكثرة العامة هى التى جرأته

على ذلك» . ثم يتعرض لتصرفاته فى خطته فيقول « ولقد سمعت من والدى انه أحصى جميع ما باعه من الاحباس ، وتسبب فى هتك حرمتها والبيع والابتياع ، خمسة وثلاثين حبسا أو نحوها ... حتى انه ترامى به الحال ، ان فعل ذلك فى الاحباس الموقوفة على خدمة المدينة الشريفة ، ولم يراع فيها جانب النبى الشريف ، ولا عظمه ، ولا وقره ، فى هتك ما نسب اليه » الخ ... ويختم هده الترجمة بقوله «لها ولنكف العنان، فان مساويه أكثر من أن يحصيها الانسان ، ولما كان هذا التأليف للنصح العام اتينا بنبذة من مساويه ليدل مبدأها على منتهاها ، ولله عاقبة الامور » .

ثم يتعرض لترجمة شخص آخر من هذا الصنف فيقول عنه « تولى خطة النيابة (أى نيابة القضاء) بالبلد ، ومكث فيها زمانا ، وعزل مرات ... وكان عامى القلم والفكر ، لا يعرف ما يصلح به وضوءه وصلاته فضلا عما وراء ذلك ، غير أنه اتخذ كتب الوثيقة صناعة على ما فيها من الفساد والافساد ما ورسما ، وضعف الدين أوجب انزاله تلك المنزلة . وامتحن مرات ، وغرم كرات ، وهو اول من ظهر الغرامة على خطة النيابة ، اعطى عليها مالا لقضاة العجم ، حتى ولوه اياها ، وربما ارشى الولاة يمينا وشمالا وسمعت عن شيخنا أبى عبد الله التواتى المذكور انه طلب منه الرجوع لقسنطينة ، بعد أن أخرج منها واستوطن باجة ، كما قدمناه فاعتذر بانه لا يرجع الى بلد فيه فلان نائب ، أو قاض ، ونحو ذلك ، وكان موسوما بالرشى مغموصا بشهادة الزور والله أعلم بالسرائر » .

الى هنا ننهى القسم الاول من النماذج الخاصة بالذين تولوا الخطط الدينية والشرعية بدون كفاءة واستحقاق . وعقد لهم المؤلف الفصل الثانى من تأليفه ، اما القسم الثانى من هذه النماذج فهو يشمل الطبقة التى خصص المؤلف الفصل الثالث من تأليفه ، وعنوانه يقوله (الفصل الثالث فيمن ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين ، والمتشدقة ، والمبتدعة الضالين المضلين ، وربما الجأ الحال الى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به ، فسننبه عليه ان شاء الله) .

فان المؤلف كما نرى من قوله هذا ، كان ينكر على المنحرفين من مدعى المشيخة والتصوف ، وكانت اسوته فى ذلك . مذهب أحمد زروق ، وتلميذه عبد الرحمن

الاخضرى أى كان لا يعمم انكاره على أصل الصلاح ، ولا أصل التصوف ، ولهذا نبـه فى فصله هذا بقوله « وربما الجأ الحال الى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به فسننبه عليه ان شـاء اللـه » ٠

وقد لخص نظريته بعد ذلك فى المقياس الذى كان يعتمده فى احكامه على هذا الصنف من مترجميه بقوله « والميزان الاعدل فى ذلك ان ننظر الى المرء وما هو عليه ، من الطريق القويم والصراط المستقيم فى اتباع السنة قولا وفعلا وعملا ٠ فما كان ، فهو ممن يجب الاعتقاد فيه ، ومالا ، فـلا » ٠

قد بدأ هذا الفصل بترجمة قاسم ابن أم هـانى وبين الداعى الى البداية بترجمته فى قوله « وبدأنا به لعظم مفسدته بين الخلق ، وشهرة بدعته وقوتها » وبعد ان ذكر أن جد المترجم ينتسب الى الصلاح ٠ وكان معاصرا لعبد الرحمن الاخضرى الذى كان ينكر عليه ، قال : « فاعلم ان هذا الرجل (أى قاسم بن ام هانى) كان فى ابتداء امره ، ذا سمت حسن ، وكان لجده رعايا ، واتباع ، وقد أظهر التقشف والزهد ، ولبس المرقعات ، ثم ادعى مراتب الولاية والصلاح ، وحكم المؤلف بالزندقة معللا حكمه عليه بقوله : « واما الزندقة فبـدعواه ، ان ما اصاب من النكبات ، من لم يوافقه على مرغوبه، فهو ببركته ، ومن أجل حضرته ، وقد علم ان التحدى فارق بين منصب النبوءة والولاية، فالولى اذا تحدى تزندق ، وخرج عن دائرة أهل الغرب والخصوص وقد ذكر علماؤنا فى كتبهم ، ان من قال أنا ولى ، فهو زنديق ، هذا لو كان آثار الطريقة ظاهرة عـلى صاحبها ، واما من هو فى لجج العماية غريق ٠ وفى تيه الحرمان راكض متلطخ بقذرات المعاصى الظاهرة ، التى هى عنوان عن الباطن فأنى يشم رائحة أهل الله » ٠

ثم ترجم لآخر وهو الشيخ طراد دفين نواحى عنابة فقال عنه : « أصله لص من اللصوص ـ ويقصد باللصوص رؤساء الاقطاع ـ وكان كبير المتلصصة ثم زعم انه تاب، والى الله اناب ، فصار من أهل الصفوة والولاية ، وهو باعتبار ظاهر الشرع من أهل الطرد والجناية ، والبعد عن الله والغواية كان لص الظاهر ، صـار لص البـاطن والظاهر » رمحه الظاهر ٠ لم يزل بيده للحرابة والفساد ، وسبحته ، هى ما يذبح بها العباد ، ويضلهم بها عن طريق الرشاد ، ويقطعهم عن باب الملك الجواد ٠٠٠ ولهذا

الرجل حروب ووقائع مع شطر قبيلته ، اذ لم تدخل تحت طاعته ، ويشن الغارات عليها ، ويأخذ أموالهم يستحلها · وبعد ان يذكر موبقاته ، والطرق التي يستعملها لجلب الناس ، يذكر ان جل سكان عنابة دخلوا في احبولته ، ومنهم خطيب جامعها وفقيه بلدها ، وعكف على اتباعه اجلاف البوادى ، وامتلأ باكاذيبهم حافتا الوادى وأكثر من مآثره التى هى فى طى الخرافات ، الحاضر والبادى الخ ···

وبقصد بخطيب جامع عنابة الشيخ محمد ساسى ، الذى تقدم لنا الحديث عنه ، عندما تكلمنا على حفيده أحمد ساسى صاحب منظومة « الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة » ، ثم ترجم لغيرهم ، وختم الفصل الثالث الذى عقده لذكر المنحرفين من المدعين للولاية والصلاح بصنف آخر ، يعرف بالمجاذيب ، فعقد لهم فصلا مفيدا ، نلخصه فى هذه الجمل التى ذكرها فى ترجمة واحد منهم فقال : « فان زعموا ـ أى المعتقدون فى صلاحهم ـ انه من أهل الجذب ، وانه غير مخاطب ، فيقال لهم ما تعنون بالجذب ، أجذب أهل الولاية ، ام جذب من سلب العقل والدراية ، اما الاول ، فهو مقام عال ، ومرتبة رفيعة ، ويتحاشى صاحبها عن ترك المندوبات ، فضلا عن الواجبات ، والوقـــوع فى المحرمات ، وكيف لا وقد جذبته من اوصاف النفس يد العنـاية ، وطهرته من ادناسها ، وأبعدته من ايناسها ، واحساسها الخ ··

الى ان يقـــول ،

واما الثانى وهو سلب العقل والدراية ، فلا يصح فى عقل عاقل ان يدعى الولاية فيمن سلب عقله وصار مثل البهيمة ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، وقد قـــال تعالى فيمن سلب التوفيق ، وحاد عن سواء الطريق ، « **ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا** » ، وقد علم ان العقل جعله الله تعالى مناطا للتكليف ، وانه لا يسكنه الا من احب ، وقد امتن به على الانسان فكيف يكون اهل صفوته ، ووده مسلوبا منه فانظر الى سخافة عقول هؤلاء ، وقلة تمييزهم فى نسبتهم ، متى كان من هم كالانعام او اضل وكالحشائش اولياء مقربون · وقد أخبر الله تعالى « **ان شر الدواب عند الله الصـم البـكم الذين لا يعقلون** » · فهل ترى من اخبر الله عنهم بصفة الشر ، ان يكونوا أهل الحضـــرة

والحظوة ، وهل معتقد هذا الا جاهل غبى ، أو معاند شقى ، عافانا الله مما ابلاهم ، وعافانا مما بـه ادهـاهـم » ٠

والحق المؤلف بهذه الطبقات ، طبقة اخرى تفرعت من اسر دينية او منسوبة للتصوف فقال فى وصفهم « ظهر منهم العتو والاستكبار ، وصار العقب عند الخاصة والعامة فى عصرنا ممن لا يلحق لهم شأو ، ولا يقاسون بقياس غيرهم ، اذا قالوا أولاد فلان ، جرى من تفضيلهم على جميع الامة : علمائها ، وصلحائها ، بل وأولاد سيد المرسلين ، فيجعلون لهم من الرفعة والافتخار ، ما لم يجعلوا معشاره لاولاد النبى المختار ، والكفر أقرب لهؤلاء من الايمان ، والطـرد أولى بهـم والخذلان ٠٠٠ الى أن قال فهذه فتنـة ومصيبة لا أعرفها الا فى هذه البلدة الظالم أهلها » الخ ٠٠

والحاصل ان هذا التأليف اى « منشور الهداية فى كشف حـال من ادعى العلم والولاية » من **التأليف** التى تعد بالاصابع فى المكتبة العربيـة عمـوما ، وفى المكتبة الجزائرية خصوصا ، فان مؤلفه تناول فيه ما يعبر عنه فى زماننا هذا ، بالحياة اليومية اذ لم يقتصر فيه على اطارات البلاد من رؤساء الدين الموظفين ، وغير الموظفين الذين ركز عليهم تأليفه ، وخصصهم بتراجم وافية بشجاعة نادرة ، بل تحدث عن أوضاع البلاد فى الفترة الحاسمة التى اعقبت انهيار الدولة الحفصية ، وتولية الاتراك الذين كـان لاسرة المؤلف فضل على تمكينهم من احتلال قسنطينة ، ومع هذا فقد احتفظ المؤلـف بالنزاهة ، حيث عمم انتقاده على ولاة الاتراك المنحرفين ، وعلى رؤساء الاقطاع ، الذين سماهم باللصوص ، وافتى بعدم عدالة العلماء الذين كانوا ينتصرون لهم ، ومن هذه الناحية اقام مؤلف منشور الهداية الدليل على بطلان ما ذهب اليه كثير من كتابنا المعاصرين فى تعميم اتهامهم المؤرخين السابقين من أنهم كان لا يعنيهم من تاريخ البلاد الا حياة الملوك والسلاطين والرؤساء واهمالهم حياة الشعب ، فان مترجمنا كما نـرى اظهر فى تأليفه هذا نزاهة وموضوعية وحمل مسؤولية الانحراف الحاكم والمحكوم ، ولم يرسل التهم جزافا ، بل جسمها فى كل منحرف وتعرض مـن خلال تراجمه الى حالة البلاد السياسية والثقافية فذكر المعاهد العلمية والقرآنية بالبلدة ـ أى قسنطينة ـ وبقمم الجبال ، كما احصى الثورات التى اندلعت فى عهد الاتراك بتفصيل قل مـا

تعرض لها غيره ، والقى اضواء على صفحات من تاريخ تـونس ـ لا زالت مجهولة فى تفاصيلها ـ خصوصا عندما استنجد ملكها الحفصى بالطاغية شارلكان على خير الدين واغتنم الملك الحفصى هذه الفرصة فانتقم من خصومه شر انتقام ، ومن هؤلاء الخصوم ، جد المترجم ، يحيى بن الفكون الذى قتل فى حلقة درسه بجامع الزيتونة .

كما تعرض المؤلف لترجمة عالمين جليلين من علماء تونس أوفدتهما الحكومة التونسية لابرام معاهدة صلح ، اثر الاحداث التى وقعت بين الجيش الجزائرى والجيش التونسى ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين وألف وهذان العالمان هما أبو اسحاق ابراهيم الغريانى القيروانى ، وأبو محمد تاج العارفين العصمانى ، وفى مدة اقامتهما بقصر جابر ـ قرب عنابة ـ اجتمعا بالوفد الجزائرى الذى كان من بين أفراده العالم الجزائرى أبو العباس أحمد بن الحاجة تلميذ المترجم ، الذى حدثهما عن استاذه عبد الكريم فحملاه اجازتين لشيخه المذكور ، هما قطعتان من النـثر الفنى ، أثبتهما المؤلف ، وهذان الالتمسان زيادة على قيمتهما الادبية والتاريخية ، فيهما دلالة واضحـة على ان الوحدة الثقـافية والرابطة الاسلامية بين العلماء المسلمين ، كانت حقيقة ، فانه رغم الخلافات السياسية والظروف التى ورد فيها هذان العالمان للحدود الجزائرية حمـلا زميلهـم الجزائرى ، الاستجازة لهما من أستاذه الفكون ، ولا أظن الوقت يكفينا لعرض نماذج من الفصل الاخير الذى ختم به المترجم تأليفه ، وعنونه بقوله « خاتمة الكتاب فى ذكر من أردنا ذكره من الاصحاب والاحباب » وقد خصها لمعاصريه المستقيمى الاحوال ، سواء كانوا من الموظفين أو رؤساء الدين ، وهى تراجم مفيدة جدا ، ومن بين مترجميه فيها أحمد المقرى التلمسانى ولمكانة أحمد المقرى فى تاريخ الادب العربى ، الذى لا زالت جوانب من ترجمة حياته مجهولة ، نقتصر على ذكرها ونختم بهذه الترجمة دراستنا . أسـوة بالمؤلف الذى ختم كتابه بترجمته . اذ المقرى شخصية كادت ان تكون عالمية ، اهتم به وبآثاره كثير من الباحثين ، مسلمين وأجانب ، ولا زال محل اهتمام الكثير من الكتاب والمؤرخين ، مسلمين وأجانب ، ورغم ذلك لا زالت جوانب من حياته مجهولة ، مثـل اقامته بعاصمة الجزائر ، وبمدينة تونس ، فى طريق ذهابه من المغرب الى المشرق ، ومثل الظروف التى غادر فيها البلاد الخ .. سبـق للمقرى التعرف بالمؤلف ابن الفكون ،

وتبادل معه الرسائل وترجمه فى نفح الطيب ، الا انه حدث ما كدر صفو هذه الصداقة وذلك ان المؤلف ابن الفكون سبق له ان كتب جوابا عن سؤال طرحه تلميذه أبو عبد الله محمد بن باديس ، وعند اجتماع تلميذه المذكور بأحمد المقرى فى موسم الحج اطلعه عليه ، فعلق عليه المقرى ، وبعبارة اصح قرظه ، وختم تقريظه بالاشادة والثناء على ابن الفكون وأسرته ، ومن جملة ما قال فى ذلك : « وبالجملة فهو العالم الذى ورث المجد لا عن كلالة ، وتحقق الكل ان بيته شهير الجلالة ، بيت بن الفكون هضاب العلم والوقار والسكون لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف ، ودام عبد الكريم فردا فى العلم والزهد والولاية ، فهو الذى حاز فضل السبق وصار فى ذا الزمان آية ، والله يبقيه ذا سمو مخلد الفصل والدراية » ٠

فأجابه ابن الفكون بجواب على نمطه ، كما وكيف ، الا أنه تبين له ان المقرى لمزه فى تقريظه ، وعدله بعض الهنات ، ولذا انفجر ، ولم يكظم غيظه وقال فى الرد عليه : « والرجل ـ أى المقرى ـ فرح بما أوتى من فصاحة اللسان ، وصوغ الشعر ، وحفظ التصانيف والاقوال ، وجانبته زياج التوفيق فتغطى فكره عن اقتناص بنات التدقيق ، وهل طلب المولى من العلم الا العلم ، والعلم غير الحفظ ، وهو نور يقذفه الله فى قلب من يشاء ، ثم اذا انعم المولى على العبد بنعمة الحفظ ، أو فصاحة اللسان ، انما تقابل بالشكر ، الذى هو سبب المزيد ، لا بالاحتقار والاستصغار لغيره ٠

وهل ما ناله من كده أو كد أبيه أو جده ، انما الفضل والمنة لله لا لغيره ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، وكان فضل الله عليك عظيما ، فلا يرى الموفق لنفسه فضلا ولا شغوفا على غيره ، ممن لم يصل الى درجته ، هذا هو عين الصواب وطريقة العلماء العاملين اذ لو كان عنده من الحفظ الفهم : فيما حفظ ، والمعرفة بابحاثه وتوجيهاته ، فما بالك بمن هو جامد فى ذلك كما قال فى جوابه ٠ انه من الصداء ، صوت خال من معنى ، ثم أوضح اخيلاءه ، وأظهر ما كمن فى النفس من الحسد ورفعة النفس وترفعها والحقيقة ان ابن الفكون اطلق العنان لعواطفه الدالة على حساسيته المرهفة ، وتغالى فى تحامله على المقرى الذى ـ وان ثبت ما سماه المؤلف لمزا أو مسا بكرامته ـ فلا يبرر له

ذلك ما كاله له من التهم ، كالتخلص من المسؤولية ، وان نظرياته سطحية وانه معجب بنفسه حسود ، ثم تتبعه فى حياته الخاصة . فاتهمه باستجداء اغنيـاء مصر وتجارها بالمدح • بعد وصوله اليها ، ولا أظن ان المقرى لقى فى طريقه من انتقده بمثل هذا النقد اللاذع وطعن فى عرضه بمثل هذه القساوة كابن الفكون اللهـم الا اذا كانت بينهما خلافات أخرى لا زلنا لم نطلع عليها ، وعلى كل حال ، فعلاوة على هذه النواحى السلبية فى الترجمة ، فان المؤلف استوعب فيها جوانب هامة مجهولة تماما من مترجميه القدامى والمتـأخـريـن •

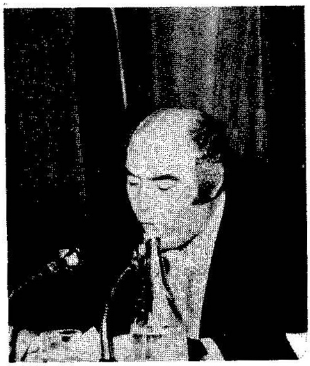
والخلاصة ان هذا التاليف نفيس جدا حيث لم يقتصر فيه صاحبه على تجسيم المنكر والانحراف عند طبقات معينة كما هو مألوف فى كثير من التآليف الخاصة بمثل هذه التراجم ، بل سلط اضواء النقد والتحليل على الاطارات الذين كانوا يتمتعون بالنفوذ والتصرف ، المستمد من ولاة البلاد ومن الحكام بأمرهم رؤساء الاقطاع ، كما تسلط على طبقة تغالت فى الحضارة والرفاهية والترف ، فجعلتها مقاييس للنبالة والفخر ، كان رؤساء الاقطاع هم المتصرفون فى البلاد ، اذا كانت الدولة التركية فى أول عهدها تستمد من الكثير منهم نفوذها ، فجابههم المؤلف ، وصار يطلق عليهم القاب اللصوص ، وكان صارما على العلماء الذين يستمدون نفوذهم منهم أو يقبلون عطاياهم وجوائزهم ، ثم لم يكتف المؤلف بالتنفير منهم بل الحقهم بمترجميه ، فتعرض لتراجمهم ، وللطرق التى سلكوها للوصول الى رياسة قبائلهم ، وأخيرا ان المؤلف كما ذكرنا كان نزيها حيث أنه كان مدينا لولاة الاتراك الذين ولوه مشيخة الاسلام ومشيخة البلد التى توارثها أفراد أسرته طيلة حكم العهد التركى بالبلد ، ومع هذا فلم نر فى كتابه جملة واحدة أشاد فيها بحاكم من حكام الاتراك ، بل بالعكس من ذلك فقد كان كثيرا ما يجره سياق الحديث عن مثالب مترجميه فيتهمهم بالتزلف والتملق والرشاء للقضاة والولاة الاتراك الذين كان يلقبهم بالاعاجم • هذا كله علاوة على ما تخلل تراجمه ، من الحديث عـن وضعية البلاد بتدقيق وتفصيل لا زلنا لم نطلع على مثلها فى كتب تاريخ هذه الفترة كالتمردات والثورات والخلافات التى كانت بين علماء قسنطينة والملوك الحفصيين بتونس مما ادى الى هجرة الكثيرين منهم ، ومن بين هؤلاء المهاجرين جد المؤلف يحيى بن الفكون الذى

استشهد فى حلقة درسه بجامع الزيتونة كما تقدم لنا ذلك ، كما تعرض المؤلف للاتصال الذى كان بين علماء قسنطينة وعلماء تونس لا فى المجال الثقافى فحسب بل فى المصاهرة .

وفى الختام ألفت انتباه بعض الاخوة ان الاهتمام باحياء مجد الاسلاف واستعراض مآثرهم هو من أوكد الواجبات على جيلنا ، وذلك ليتصور الجيل الصاعد تاريخ بلاده على حقيقتها ، وعلى ذكر احياء ، التراث والاهتمام به فان احد كبار المستشرفين فى العصر الحاضر ألقى فى السنة الماضية سلسلة بحوث بجامعة باريس موضوعها نوازل الفقيه ابن عظوم القيروانى ، ومن بين هذه النوازل الفقهية رده على بعض فقهاء قسنطينة ، الذين كان من بينهم يحيى ابن الفكون جد المؤلف ، وفى صيف السنة الماضية انعقد مؤتمر لدراسة بحوث الحضارات لغربى البحر الابيض المتوسط بجزيرة مالطة وكان الباحثون يربو عددهم على الخمسين ، تناولوا بالبحث الحضارات المتعاقبة على حوض البحر الابيض المتوسط كالحضارة اليونانية والفنيقية والرومانية فصوروها بجزئياتها . لم يغادروا فيها صغيرة ولا كبيرة ، ولم يعتمدوا فى بحوثهم على آثار كتابية اذ معظمها مفقود ، وانما هم يتتبعون ما يعثرون عليه من آثار مادية كالكتابة على شواهد القبور والنصب التذكارية وآثار البناءات والادوات المنزلية والاضرحة وما الى ذلك فمن العار علينا ان نترك تراثنا الكتابى يضيع .

حـول كتـــاب :
القوميــة العــربية وصــراع الطبقــات

د· الحبيـب الجنحانى
أستاذ بالجامعة التونسية



- من منطلق اقتصادى تنظيرى يطرح المؤلف قضايا جديدة وجريئة تهم حاضر الوطن العربى ومستقبله ·
- المجتمع العربى الاسلامى له ميزاته الخاصة فى التطور بالامس ، وسماته البارزة فى معركة اليوم من أجل الفجر الجديد ·
- الوطن العربى يقف اليوم فى مفترق الطرق ·

تصدر يوميا كتب جديدة فى باريس تعالج شتى قضايا المعرفة ، ومشاكل الانسان قديما وحديثا ، ولكن الكتب التى تحدث الصدمة ، وتثير النقاش قليلة ، وكان ضمن هذه الكتب القليلة الصادرة بباريس خلال الموسم الثقافى الحالى كتاب « القـومية العربية وصراع الطبقات » للكاتب المعروف سمير أمين ، وقد نشرته دار منشورات « منتصف الليل » فى 156 صفحة من القطع المتوسط ·

وقبل الحديث عن محتوى الكتاب نود تقديم مؤلفه فى بضعة سطور ·

اشتهر الاستاذ سمير أميـن خـلال الـسنوات الاخيرة بعدة مؤلفات يعالج فيها القضايا الاقتصادية للبلدان النامية منطلقا من ميدان اختصاصه : العلوم الا قتصادية ·

هو من مواليد مصر سنة 1931 ، وبعد أن عمل من سنة 1957 الى سنة 1960 فى الادارة المصرية للتطور الاقتصادى غادر مصر ، وأصبح يعيش فى فرنسا ، ثم فى بعض البلدان الافريقية الناطقة بالفرنسية ، وبعد أن اشتغل أستاذا فى بعض الجامعات الفرنسية أصبح يـدير منذ سنـة 1970 « المؤسسة الاقتصادية للتطـور الاقتصادى والانماء » بمدينة داكـار ·

ومن أشهر كتبه « اقتصاد المغرب » ، « المغرب الحديث » « مصر الناصرية » ، « التطور المتفاوت » ، « التراكم فى السلم العالمى ، نقد لنظرية التخلف » ، وغيرها من الكتب الاخرى والدراسات ، وقد ترجم البعض منها فى بيروت ·

ست أطروحات تثمل نقطة الانطـلاق :

ينطلـق المؤلف من أسس اقتصادية بالدرجة الاولى لتفسير التطـور التاريخى للمجتمع العربى الاسلامى رابطا اياه بقضايا هذا المجتمع اليوم ، ومصيره غـدا ، ويضع القارىء فى تمهيد تحذيرى أمام ست أطروحات تتباين تماما مع الآراء المعروفة ويشير انها ستصطدم بالخصوص بالافكار المتداولة فى أوساط الماركسيين العرب ·

ـ **الاطروحة الاولى :** ان الوطن العربى قبل العهد الاستعمارى لم يكن يمثـل مجتمعا اقطاعيا ، ولكنه كان يمثل مجموعة من البنيات الاجتماعية تحوم حول أسلوب الانتاج الجبائى ، وهذا الرأي مرتبط برأي آخر مكمل له ، وهو الدور الفعال للتجارة الكبرى فى تجمع الثروات ، والتجارة الداخلية المحلية المرتبطة بالتجارة البعيدة المدى (التجارة الكبرى) ، ولذا فان الانتاج الزراعى كان ضعيفا ـ باستثناء مصر ـ وهذا الفقر ناشىء عن ضعف قوى الانتاج فى الميدان الفلاحى فى منطقة قاحلة ، أو شبـه قاحلة مع استثناء بعض المناطق وفى عصور مختلفة · وطريق التطور هذا يختلف تماما مع « أوروبا الاقطاعية » المتحفزة فى نهاية العهد الاقطاعى الى الدخـول فى مرحلة تاريخية جديدة بقيادة **البورجوازية** ·

ـ **الاطروحة الثانية :** تتصل بنظرية الامة ، يذهب سمير أمين الى أن الوحـدة العربية هي النتـاج التاريخى للوحدة التجارية ، والى أن الطبقـة الاجتماعية التى حققت هذه الوحدة هي طبقة التجار والمحاربين ·

ان الوحدة العربية لها ـ اذن ـ أسس تاريخية راسخة « وقد بدأت هذه الوحدة تضعف ، وتتفكك مع بدايـة عـهد التدهور العمرانى ، وتقلص العلاقات التجارية فى العالم العربى الاسلامى ، وقد ساعد ارتباط الوطـن العربى فى العهـد الاستعمارى

بالنظام الامبريالى على ذلك التفكك والتجزىء • وجاء النظام الاستعمارى ليحـول الشعور بالوحدة العربية حيث أصبح يتمثل فى النضال التحريرى ضد عدو مشترك ، ويضيف انه ليست هنالك طبقة عربية مسيطرة فى العهد الامبريالى (سـواء كانت بورجوازية الكومبرادور ، أو طبقة كبار الفلاحين ، أو بورجوازية الدولة) قادرة على تحقيق الوحدة العربية •

ـ **الاطروحة الثالثة :** تتعلق بالامبريالية والطبقات المتحالفة معها فى المنطقـة العربية ، ويمر هذا التحالف بأكثر من مرحلة ، نظرا للتناقضات بين مصالح الفئات الحاكمة والدول الامبريالية رغم مظاهر التعاون والتحالف •

وينتهى فى آخر هذه الاطروحة الى رفض « الطريق غير الرأسمالى » •

ـ **الاطروحة الرابعة :** تتعلق بدور البورجوازية الصغيرة فى قيادة الكفـاح التحريرى ضـد النظـام الاستعمارى ، وهـو الدور الذى اكتسبته نتيجـة ضعـف البروليتاريا ، وعدم وعي الفلاحين ، وهذه البورجوازية الصغيرة التى يطلق عليها عادة اسم « البورجوازية الوطنية » قد عارضت الفئات البورجوازية التى تحالفت فى الاقطار العربية مع النظم الاستعمارية ، وهي التى فتحت الباب لاساليب تطور جديدة ، أهمها رأسمالية الدولة ، وهي رأسمالية غير مستقلة •

ـ **الاطروحة الخامسة :** تعالج هذه النقطـة دور الاتحاد السوفياتى والتحالف العربى ـ السوفياتى ، فيرى المؤلف أن سبب فشل المنظمات الشيوعية التى تستطيع أن تحقق قيادة البروليتاريا ، وفئـات المزارعين الفقراء فى النضال ضد الامبريالية يعـود الى ارتباطها باستراتيجية موسكو القائمة على مساندة بورجوازية الدولة • ان هذا المسلك الانتهازى يخدم أهداف الاتحاد السوفياتى كقوة عظمى ، وهو تحريف للماركسية يحول فى النهاية دون ضبط أية استراتيجية ثورية ناجحة •

ـ **الاطروحة السادسة :** تتصل بالوحدة العربية ، وهو الموضوع الذى حظـى بقسم مهم من الكتاب • ان الوحدة العربية عمل يهم الشعوب العربية قبل كل شىء فى نضالها ضـد الامبريالية ، والوحدة العربية يجب أن تمـر حتمـا بمرحلة الاعتراف بالاختلاف فى الاوضاع من بلد وآخر ، ويجب النظر اليها فى نطاق المعطيات العامة ، وخدمة لآفاق المستقبل • ان الاخطاء الاستراتيجية هي التى تفسر الفشل الذى سجل لحد الآن فى حياة الثورة العربية •

ونجد الكاتب يعالج بعد هذه الاسس التنظيرية الاصول التاريخية للقومية العربية وركز بالخصوص على الفرق بينها وبين ظاهـــرة القومية فى أوروبا · ويعود هذا البون الشاسع بين الظاهرتين الى التباين فى التطور بين العالم العربى الاســلامى فى العصر الوسيط والمجتمع الاوروبى الاقطاعى ، ومن هنا فانه لا يمكن الحديث عن الاقطاعية بمفهومها التاريخى المتداول بالنسبة للمجتمع العربى الاسلامى ، فقد ظهرت نظم شبه اقطاعية فى فترات تدهور التجارة الكبرى ، وهو يلمح بالخصوص الى ظهور الاقطاع العسكرى الذى ظهر هنا وهناك مع بداية عصور التدهور العمرانى ، وبلـغ أوجــه اثنــاء العصر العثمانى ·

وبعد أن يعالج الكتاب قضايا التطور الحضارى يصل الى عصر النهضة فى القرن التاسع عشر ، ولا سيما فى مصر وسوريا ، ولكن هذه الحركة تفشل ـ فى رأيــــه ، وهو رأي قابل للنقاش ، بطبيعة الامر ـ ، وتعيش أقطار العالم العربى منعزلة تحـت هيمنة امبريالية كاملة الى الحرب العالمية الثانية تقريبا ، وخلال هذه المراحل نقـف على ظاهرتــين أســاسيتــين :

ـ بروز طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة البورجوازية الصغيرة فى المدن تحــل محل الفئات القديمة ، وتتزعم النضال الوطنى التحريرى ·

ـ حركة اليقظة الجديدة مرتبطة بتطور الوعي بضرورة الوحدة العربية ، وقـد غذى خلـق اسرائيل فى المنطقة هذا الشعـور فارتبط هـذا النضال ضد الامبريالية بالنضال ضـد الصهيونية ·

قضية فلسطين تصبح محور القضية العربية :

بعد الحديث عن عصر النهضة يتحدث الكاتب عن فترة العزلة الجهوية التى عاشها الوطن العربى من 1880 الى 1950 فتحدث عن مصر والمشـــــرق ، وفلسطين ، ولكنـــه يغفل عن المغرب العربى !

وفى حديثه عن فلسطين ، وتحليل السياسة البريطانية ، وظهور العملاق الاميركى الجديد على المسرح السياسى فى منطقة الشـرق العربى بعـد الحرب العالمية الثانية تساءل عن سـر موافقة الاتحاد السوفياتى على تقسيم فلسطين سنة 1947 ، وهــي الموافقة التى جعلت الاحزاب الشيوعية العربية تقع فى أزمة ، وتفقد أرضية العمــل بحكم دفاعها عن سياسة موسكو أصابت ، أم أخطأت · ويعيد موافقة الاتحاد السوفياتى على قرار التقسيم الى أخطاء تقديرية لستالين ·

العهـد الناصـرى 1947 ـ 1967 :

تميز هذه الفتـرة ثـلاث ميزات أساسية :

أولا ـ فشل البورجوازية الوطنية العربية · ـ مع الاشارة الى المواقف الانتهازية للشيوعيين ـ ، وصعود البورجوازية الصغيرة الوطنية ·

ثانيا ـ تقلص ظل السياسة البريطانية من المنطقة لفائدة القوتين الاعظم : الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيأتى ، واتفاقهما على تقسيم المنطقة ·

ثالثا ـ تبلور الطابع التوسعى للسياسة الاستعمارية الصهيونية ·

بانتهاء المرحلة الناصرية تبدأ مرحلة جديدة ، ولاسيما بعد حرب أكتوبر ، حيث تحاول قوى سياسية واقتصادية معينة أن تفرض سيطرتها فى كل قطر عربى ، ثـــم يحـــاول المؤلف فى الفصل الخامس (ص 108) أن يطـرح بعض القضايا التنظيرية · وينطلق فى معالجته لتاريخ الوطن العربى والمسألة القومية من ثلاث نقاط :

أ ـ يرفض تطبيق المفهوم الاوروبى البورجوازى للمسألة القومية على القومية العربية قائلا : ان الامة ظاهرة اجتماعية يمكن أن تبـرز فى جميع عصـور التاريخ ، فهي ـ اذن ـ ليست مرتبطة بأسلوب الانتاج الرأسمالى ·

ب ـ ان ميلاد الامة باعتبارها ظاهرة اجتماعية بزعامة طبقة اجتماعية لا يعنى أبدا أن هذه الطبقة هي طبقة البورجوازية الرأسمالية الوطنية ·

ج ـ ظاهرة الامة ظاهرة قابلة للتحول يمكن أن تظهر ، وتقوى ، كما يمكن أن تتفكك وتزول حسب قوة ، أو ضعف الطبقة الاجتماعية التى تزعمت ظهور الامة ·

ويتخلص بعد هذه التوطئة التنظيرية الى الرأي التالى : الامة العربية قد تحققت فى عصور قليلة تمثل فترات ازدهار العالم العربى الاسلامى ، وتزعمت وحدة الامة العربية طبقة التجار والمحاربين · ان الوحدة العربية ليست نتيجة الهيمنة الاستعمارية الحديثة ، أو نتيجة شعور ارتباط حضارى ولغوى فحسب ، بل لها جذور تاريخية ·

ان طرح السؤال : لماذا فشلت « الماركانتية » العربية فى تكوين مجتمع رأسمالى ؟ هو طرح لقضية زائفة · وهو اتجاه متأثر بمفاهيم تاريخ البورجوازية الاوروبية ، وهو منطلق خاطىء يقع فيه كثير من الباحثين العرب ·

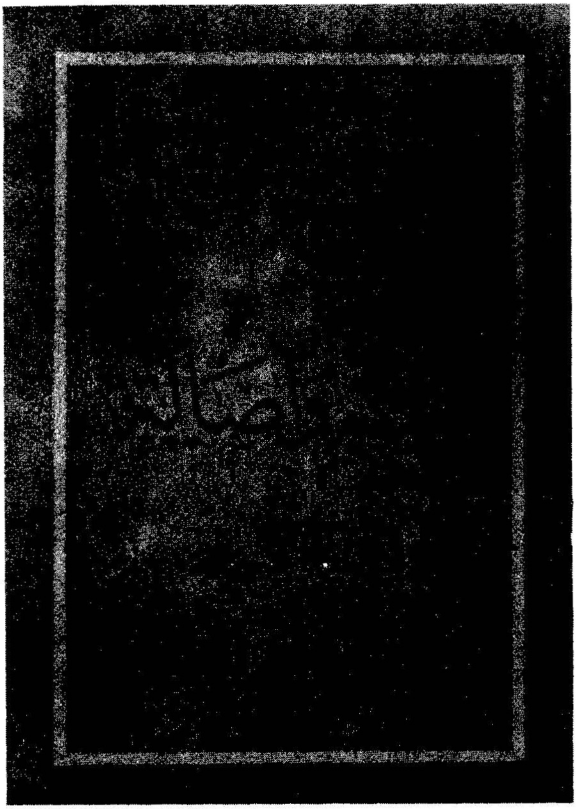
ونلاحظ فى هذا الفصل نوعا من الخلط فى منهجية المؤلف ، فبعد هذه الفقـرة المهمة عن طبيعة المجتمع العربى فى عهود الازدهار ، ومميزاته الاقتصادية بالخصوص

ومقارنته بالمجتمع الاوروبى فى عصر الاقطاع يثب فجأة الى موضوع سياسى معاصر يتحدث فيه عن الصهيونية ، واسرائيل ، ومستقبل فلسطين ، ولاسيما تأسيس دولة فلسطينية !

أما الفصل السادس والاخير (ص 139) فيخصصه لآفاق المستقبل العربى ، ويرسم عدة لوحات ممكنة لهذا المستقبل ٠

ان الممعن النظر فى كتاب سمير أمين الجديد يشعر بأن هنالك كثيرا من الافكار قابلة للنقاش ، ولاسيما فيما يتصل بالمسائل ذات الطابع السياسى ، ولكن أهمية الكتاب تبرز - فى نظرنا - فى القضايا الجديدة والجريئة التى يطرحها الكاتب أمام الباحثين العرب حول تحليل بعض مظاهر التطور فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، ولاسيما حول بروز فئات اجتماعية معينة ، وما يكمن وراء بروزها فى عصر معين من أسباب موضوعية ، ومما يزيد هذه الآراء شأنا انها تخلصت من النظر الى قضايا المجتمع العربى من خلال منظار التاريخ البورجوازى الاوروبى ٠

منشـــورات
وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينيـــة



التفسـير الاسـلامى
للمشـكلـة الاقتصـاديـة

شـوقى دنيـا
مدرس بالمعهد القومى للادارة
العليا بمصر
ومدرس بجامعة عنـابة
قسم الاقتصاد

يحتل الفكر الاقتصادى مركزا أساسيا فى فكر الانسان ، ولا عجب فالقضايا الاقتصادية كانت ومـا زالت من أمهات القضايا التى شغلت المجتمعات والافراد على السواء · ولقد كان هذا الفكر من الثراء والاهمية فى نفس الوقت بحيث تنوع اتجاهات ومذاهب ، ومن ثم انظمة وتطبيقات · ولا غرو أن كان لمختلف المجتمعات رصيدها الفكرى الاقتصادى ، وان اختلف هذا الرصيد فى كمـه وكيفـه ، وفى ظهوره كائنا حيا تعيش عليه أفراد الجماعة أو فى بقائه مكنونا يمثل ثروه تاريخية ليس الا ·

ولعل نقطة البدء لدى أي فكر اقتصادى مهما كانت مذهبيته هي مفهوم هذا الفكر للمشكلة الاقتصادية ، باعتبار أنها تمثل المدخل الطبيعى لايـــة دراسة اقتصادية ·

ونتيجة لتشخيص جوانب هذه المشكلة ولاختيار العلاج الملائم لها تنوعت المذاهب والانظمة الاقتصادية ٠

- ولعل من أهم مميزات الفكر الاقتصادى الاسلامى أنه الهى المصدر ، بمعنى أنه ينطلق من تصور كلى للقضايا الاقتصادية قد تكفل الله سبحانه وتعالى بوضع هذا التصور بما يحتويه من ضوابط وقواعد كلية ٠ وقد ترتب على ذلك بعض النتائج ، منها ما هو منهجى كأن يلتزم المفكر والباحث الاقتصادى بهذه الضوابط ولا يشذ عنها حتى يظل منطبقا على فكره أنه فكر اقتصادى اسلامى ٠ ومن الامور المترتبة على طبيعة منبع الفكر الاقتصادى الاسلامى من أنه الهى المصدر عدم محدودية هذا الفكر ، بمعنى عدم انحصار صلاحيته فى زمان معين أو فى مكان معين ٠ انه فكر يصلح لهداية الانسان أينما هو ، اذ ان مصدره غير محدود ٠

- وليس من أهداف هذا البحث دراسة مفهوم الاقتصاد الوضعى سواء منه الغربى أو الشرقى للمشكلة الاقتصادية ، ولكن لا يمنع هذا من التذكير بأن الاقتصاد الوضعى « الذى هو بمصادره من وضع البشر » يعتنق الى حد كبير مفهوم المشكلة الاقتصادية باعتبار أنها تتمثل فى موارد نادرة نسبيا أو محدودة وحاجات انسانية غير محدودة ٠ وبالتالى فقد ظهرت القضية فى مظهر عدم كفاية الموارد لحاجات الانسان ٠

- وهو بذلك يضع الانسان أمام مشكلة كيفية التوفيق بين هذين الوجهين المتناقضين ، ثم هو بالتالى يضع الاطار الفلسفى الذى ينطلق منه الفكر الانسانى ، وهو اطار ذو مضاعف مقلل لفعالية الجهد الانسانى ، حيث أنه رسخ فى ذهنه أن الموارد غير كافية ، وحيث أن الانسان لا يخلق المورد اذن ما قيمة جهده !! ثم انه من جانب آخر جعله يؤمن بمبدأ لا محدودية الحاجات وبالتالى صرفه عن التفكير الجاد داخل اطار أن الحاجات الانسانية الحقيقية هي غير سائبة بلا حدود وبلا ضوابط ، ولو انطلق الانسان من هذا الاطار لكان لجهده الآثار الايجابية التراكمية ٠

- والسؤال المطروح أمام الفكر الاقتصادى الاسلامى هو :

هل هذا هو مفهومه للمشكلة الاقتصادية ؟ هل حقيقة ان الموارد غير كافية أو نادرة ؟ وهل حاجات الانسان غير محدودة ؟ واذ لم يكن الامر على هذا النحو فعلى أي نحو يكون ؟

واجابة عن هذا التساؤل نرجع الى مصدر الفكر الاسلامى وهو القرآن الكريم ·

أولا موقف الاسلام من ندرة الموارد :

يقول الله تعالى : (**وجعل فيهــا رواسى مــن فوقها وبــارك فيها وقــدر فيها أقواتها** (1) · (**وان من شيء الا عنــدنا خزائنه وما ننزله الا بقــدر معلوم**) (2) · (**وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار**) (3)

هذه الآيات القرآنية تدل بصورة قاطعة على أن موارد الثروة كافية لاشبــاع حاجات الانسان الحقيقية ، فهي مقدرة تقديرا حكيما بما يجعلها تواجه كل ســؤال للانسان بما يعكسه السؤال من مطلب وحاجة ، فاذا بقيت حاجات الانسان غير مؤمنة فعندئذ لا ينصرف القصور الى الموارد ، وانما ينبغى البحث وراء سبب آخر ·

وينبغى أن يفهم ذلك فى ضوء تفهم عاملين هما : أن الكلام هنا يتجه الى الموارد بالنسبة للعالم ككل · فهل الموارد العالمية تكفى حاجات الجنس البشرى ؟ هذا هــو مجال الكلام · ومعنى ذلك أنه قد يكون للموارد وضع آخر اذا كان الحديث عنها على مستوى أقل : فرديا أو اقليميا · وعندئذ ينصرف القصور أيضا الى سبب آخر أعمق من ندرة موارد الفرد أو الاقليم ·

هذا من جهة ومن جهة أخرى فليست الموارد فى جملتها معدة للاستهلاك مباشرة ، بمعنى أنها لا تحقق الاشباع المباشر ، وانما طبيعتها هو الاشباع الغير مباشر الذى يتطلب الجهد الانسانى الذى يحور تلك الموارد ويجعلها قابلة للاستفادة المباشرة ، وبدون ذلك الجهد لن تشبع للانسان حاجاته ·

وفى ذلك يقول الله تعالى : (**هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور**) (4) · هنا نجد أن المقطع الاول من الآية يوضح الشرط الاول لامكانية الاشباع وهو وجــود الموارد بصــورة مهيــأة للاشباع الغير مباشر (**جعل لكم الارض ذلولا**) ، والمقطع الثانى يوضح الشرط الثانى لذلك وهو ممارسة الجهد البشرى الذى عبرت عنه الآيــة بالمشي فى منــاكب الارض · وبتوافر هــذين الشرطين يمكن الوصول الى النتيجة المتضمنة فى المقطع الثالث من الآية وهو الاشباع المباشر المعبر عنه بالاكل ·

الموارد من حيث النوع : قد يثار تساؤل آخر مضمونه : ألا يمكن أن تكون الموارد موجودة ولكنها غير قابلة للاستغلال ، وبالتالى لا يكون فى مجرد تواجدها كبيــر فــائــدة ؟

على هذا التساؤل جاءت اجابة الاسلام قاطعة الدلالة ، يقول الله تعالى : **(وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه)** (5) ، **(وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار)** (6) ٠

وقواعد اللغة العربية تفيدنا هنا فى التعرف على أمرين : تفيد قواعد اللغة أن لفظ « ما » يفيد العموم والشمول ، ومعنى ذلك أن كل شىء فى السموات وكل شىء فى الارض مسخر للانسان ٠

ومن ناحية ثانية فان معنى التسخير كون الشىء معدا ومهيأ للاستفادة منه ٠

والنتيجة التى يمكن الوصول اليها هنا أن الانسان عندما يبذل جهده فى الاستفادة من موارد الثروة المبثوثة فى الكون فانهبلا شك سيكون لجهده الآثار الايجابية الفعالة ٠

والشىء الواضح هنا ــ مع أنه كثيرا ما يخفى على الباحث الاقتصادى ــ أن موارد الثروة الطبيعية هي فى جزء غالب منها مكفونة ومستترة ، ويوما بعد يوم ، وبتقدم المعارف والعلوم ، وبظهور الجديد من حاجات الانسان تكشف الموارد الحجاب عن جانب منها ، واذن فالموارد متجددة مستمرة طالما بقى الانسان ٠

والجدير بالذكر أن الفكر الاقتصادى الموضوعى عاد أخيرا واعترف بتلك الحقيقة منها هو الاقتصادى الامريكى BRACE R. MORRIS يقول فى مؤلفه « مشاكل نمو الاقتصاد الامريكى » ما يلى : we create materials as we learn to use hichrto unused materials. The supply of materials ansilable to man is particularly unlimited if we consider te entire globe earth, water, air and vegetation. Many are not now used by man, thought and fort can make the unused materials become usable recources.

ثانيا موقف الاسلام من حاجات الانسان :

تعرفنا على موقف الاسلام من أحد جوانب مشكلة الندرة النسبية وهو الجانب المتعلق بالموارد ، بقى أن نعرف رأي الاسلام فى الجانب الآخر لها وهو المتعلق بحاجات الانسان التى يقال عنها انها غير محدودة ٠

وللاسلام تجاه هذا الجانب موقفه الخاص الذى يمكن ايجازه فى الفقرة التالية :

I ــ يؤمن الاسلام بأن الانسان كائن مركب من عنصرين : الروح والمادة ، وقد أوضح القرآن تلك الحقيقة اذ يقول : **(اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)** (8) ٠ فالانسان من طين وهو شىء مادى محسوس وبذلك كان من عناصر الانسان المادة ، والانسان فيه من روح الله وهو بذلك كان روحا ٠

والمهم ابراز أن فطرة الانسان مركبة من هذين العنصرين تركيبا يماثل التركيب الكيميائى للاشياء بمعنى أن المركب أصبحت له خصائص مميزة عن خواص عناصره ، ولقد اعترف الاسلام بذلك فجعل حاجة الانسان ليست مادية فقط وليست روحية فقط وانما هي « حاجة روحية مادية » تلك هي حاجة الانسان الحقيقية التى تستدعيها بالفعل فطرته · ومعنى ذلك أن تلبية الحاجة المادية فقط لا تكفى ، وبالمثل تلبية الحاجة الروحية ، حيث لا هذه ولا تلك هي حاجة الانسان اذ أن حاجته حاجة مادية روحية معا ، وبالتالى فاحتياجات عنصر الجسم ليست مطلقة بغير قيود كما هو الحال لو كان الانسان جسما فقط ·

والنتيجة المستخلصة من هذا التحليل المختصر أن الانسان المتسق مع فطرته لا ينظر الى كل حاجة مادية على أنها حاجة حقيقية ، عليه أن يشبعها بغض النظر عما اذا كانت هذه الحاجة ستتنافى مع عنصر الروح أولا · والاسلام بذلك يجعل الفرد المسلم يقبل عن رضى وطواعية كاملة على وضع اطار لحاجاته بالصورة التى تتفق وفطرته المركبة ، واذن فهناك العديد من الحاجات أو بالاحرى المشتهيات الانسان المسلم فى منأى عنها ، ولا يعنى ذلك الكبت أو المصادرة لان من يدعى ذلك يتجاهل حقيقة الانسان وهو انه جسم وروح لا جسم فقط ·

وبتسليمنا بذلك فاننا نلاحظ أن العديد من موارد الثروة يستخدمها الانسان فى اشباع شهوات بعيدة كل البعد عن حاجاته الانسانية ·

والنتيجة المستخلصة من ذلك هي أن حاجات الانسان الحقيقية محدودة بحدود موضوعية تنبع من أصل وطبيعة فطرته ·

ومن الطبيعى أن المنهج الملائم للانسان المحقق لسعادته هو ما يلبى للانسان مطالب فطرته فيشبع للانسان حاجته الروحية المادية ، ويوضع المنهج الاسلامى تحت هذا الاختيار فانه يؤدى هذا الاختيار بنجاح ، يقول الله تعالى : (**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**) (9) · ويقول الرسول (ص) : (خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلا على الناس) ·

2 ـ يؤمن الاسلام من ناحية أخرى بأن الانسان له عنصره الذاتى وله عنصره الاجتماعى · فمن خصائص فطرة الانسان أنه كيان مستقل وأنه عضو فى جماعة ، ومعنى ذلك أن له حاجات ذاتية وحاجات اجتماعية · واذن فعلى الجماعة أن تعمل على اشباع احتياجات الفرد كما أن على الفرد أن يساهم فى اشباع احتياجات الجماعة

والنتيجة الكلية التى يمكن الخروج بها هنا ان الاسلام لا يعتبر المشكلة الاقتصادية مشكلة ندرة موارد بما تعكسه من عدم قدرة الموارد على اشباع احتياجات الانسان ٠

فلا الموارد نادرة ولا الحاجات سائبة بغير حدود وضوابط ٠

وأين اذن تكمن المشكلة الاقتصادية فى الاقتصاد الاسلامى ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نتعرض بعجالة سريعة لوظيفة الانسان فى نظر الاسلام ، لما لها من ارتباط وثيق بموضوعنا ٠

يمكن القول ان وظيفة الانسان كما رسمها القرآن الكريم هي خلاقة الله فى الارض ، يقول الله تعالى : (**واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة**) (I0) (**ومـا خلقت الجن والانس الا ليعبدون**) (II) ، فى هاتين الآيتين برزت الخلاقة والعبادة مرتبطتين بالانسان ، ومنه يتضح أن الخلافة التى أرادها الله هي بنفسها عبادة الله التى أمرنا بها ، فوظيفة الانسان فى الارض أنه مستخلف من قبل اللـه تعالى فى اقامة العمران على سطح الارض بالشكل الذى نظمه ورسمه الاسلام ، والانسان اذ يمارس أعمال الخلافة هذه انما هو بتعبير آخر يعبد الله حيث أن الخلافة ان هي الا تنفيذ أحكام الله فى شتى المجالات (I2) ٠

واذن فللانسان دوره الواضح ومسؤوليته المحددة فى تلك الحياة ، فليس ضيفا ولا مسلوب الارادة ٠ بعد ذلك نحاول الاجابة على السؤال المتقدم معتمدين على ما سبق وعلى ما يفيده المقطع الآخر من الآية القرآنية المتعلقة بهذا الامر وهي : (**وآتاكم من كل مـا سألتموه وان تعدوا نعمة اللـه لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفـار**) (I3) ٠

انه من خلال ما تقدم يمكن القول ان المشكلة الاقتصادية تستمد جذورها من مصدر واحد هو سلوك الانسان ٠

اذ أن الانسان مطالب من قبل الله تعالى بسلوك تجاه الموارد الطبيعية وبسلوك تجاه أخيه الانسان انطلاقا من فطرته ومن وظيفته ٠

أما سلوكه تجاه الطبيعة فضوابطه عدم الكفر بها ، وكفرانها يتأتى من ناحيتين : أولا اهمالها وعدم الاستفادة بها أي تعطيلها وتركها مكنونة ، حيث أنها لم تخلق لذلك وانما خلقت للاستفادة بها ٠

وثانيا اهدارها وتبريرها بمعنى عدم الرشد فى استخدامها · فالتعطيل والتبرير كلاهما كفر بالموارد · واذا التزم الانسان فى سلوكه مع الموارد مبدأ الاستخدام والرشد فانه بذلك يكون قد تغلب على نصف المشكلة الاقتصادية ، وبقى النصف الآخر لهـا رهينا بسلوك الانسان مع أخيه الانسان · وأما سلوكه تجاه أخيه الانسان فيقوم على أساس أن الافراد لبـنات فى بناء المجتمع لاغنى للبعض عن البعض كما أن موارد الثروة مخلوقة لبنى الانسان كافة وليس لبعضهم دون الآخر ، يقول اللـه تعالى : (**هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا**) (14) ومعنى ذلك أن على الفـرد واجبات تجاه الآخرين يجب النهوض بها ، وتنبع هذه الواجبات اما من المشاركة فى العملية الانتاجية أو المشاركة فى المادة والمورد الذى يقوم عليه الانتاج ، واذا أدى الانسان هذه الواجبات فانه بذلك يتغلب على النصف الثاني من المشكلة الاقتصادية ·

نخرج من هذا التحليل الى أنه يمكن القول بأن المشكلة الاقتصادية فى نظـر الاسلام هي مشكلة السلوك الانسانى الذى قد يتصف بأحد الانحرافين الآتيين أو بكليهمـا :

1 ـ عدم قيام الانسان بواجباته تجاه الطبيعة ، بأن يترك ما يجب عليه من بذل الجهد فى استخدامها برشد ، أي عدم قيام الانسان بالمساهمة فى كل ما يزيد الانتاج وينميه مع قدرته على ذلك ·

2 ـ عدم قيام الانسان بواجباته تجاه أخيه الانسان · وبتعبير آخر عدم القيام بما يحقق العدالة فى توزيع الناتج ·

اذن يمكـن القول ان مشكلة الانسان الاقتصادية تكمن فى عـدم قيـام الانسان بالجانب الاقتصادى من وظيفته على الوجه الرشيد · وقد يتمثل ذلك اما فى تفريطه فى الانتاج بالتعطيل للموارد أو بسوء استخدامها بحيث لا تلبى احتياجات الانسان الحقيقية · وجميع هذه النواحى الانحرافية تعيش بصورة أو بأخرى بين ثنايا النظام الاقتصادى العالمى الحالى · كمـا قد يتمثل فى تفـريط الانسان فى التوزيع ، وذلك بهضم حقوق الانسان ، سواء على المستوى الفردى أو المستوى القومى أو المستوى العالمى ، وهذه المستويات بأكملها يعيشها الانسان المعاصر ·

فليست المشكلة ندرة موارد · ان الندرة ان وجدت فهي فى الحقيقة ندرة منتجات وندرة المنتجات قد ترجع الى ندرة الموارد أو الى قصور من جانب الانسان ، ولقـد تبين لنا أن الموارد غير نادرة وانما هي غير مستغلة أو مستغلة بغير رشد أو غير

موزعة بين العالم التوزيع الرشيد ٠ واذن فلم يبق سوى الانسان موضوعا فى قفص الاتهام أو ان شئت الدقة فقل موضوعا فى قفص الادانة الفعلية ٠

1) سورة فصلت : الآية رقم 10 ٠

2) سورة الحجر : الآية رقم 21 ٠

3) سورة ابراهيم : الآية رقم 34 ٠

4) سورة الملك : الآية رقم 15 ٠

5) سورة الجاثية : الآية رقم 13 ٠

6) سورة ابراهيم : الآيتان رقم 32 ـ 33 ٠

7) See problems of American economic growth p. 44 (New York : 1961).

8) سورة ص : الآيتان رقم 72 ـ 73 ٠

9) سورة القصص : الآية رقم 77 ٠

10) سورة البقرة : الآية رقم 30 ٠

11) سورة الذاريات الآية رقم 56 ٠

12) أنظر القرطبى ـ الجامع لاحكام القرآن الجزء الاول ٠

أبــو القـــاسم الحفنــاوى وكتـــابه :
تعــريف الخـلف بــرجـــال السـلف

خديجـة بقطـاش

استاذة التاريخ بمعهد تكويـن
استاذات التعليم المتوسط
بابن عكنون ـ الجزائر

يمكننا ان نقول : بان الكتابة التاريخية فى الجزائر اثناء الاحتلال الفرنسي ، كانت تشكل وسيلة من وسائل الكفاح الوطنى ضد الاجنبى ، وضد من شوه ماضى الجزائر ، وذلك لانها كانت ترمى الى شيء هام ، الا هو الوجود القومى ، والتوعية الوطنية . وقد ساهم عدد من الجزائريين باعمالهم فى هذا المجال فكان من بينهم الشيخ مبارك الميلى ، وأحمد توفيق المدنى، وعبد الرحمن الجيلالى ، وقبل هؤلاء ظهرت مجموعة من الكتاب حاولوا ان يسجلوا ماضى الجـزائر وكان من بينهم الشيـــخ أبو القاسم الحفناوى .

حيـــاتــــه :

هو الحفناوى بن الشيخ بن أبى القاسم ، يرجع نسبه الى سلالة سيدى محمـــد ابن عروس ، وسيدى المازارى بن يطو زعيم الخلوية بمدينة بوسعادة ، وقد ولد الحفناوى

سنة 1852 ومات سنة 1942 فى بلاد الديس ، وهى بلدة تبعد عن مدينة بوسعادة بحوالى 20 كلم • وأبوه هو الشيخ المعروف بمحمد بن أبى القاسم الهاملى ، وقد كانت له شهرة كبيرة فى الهامل ، ويعتبر من اشهر المدرسين بزاويتها ـ زاوية الهامل ـ وقد ترجم له ابنه فى كتابه ، فقال : « سيدى أبى القاسم بن سائب المنصور الشريف الحسنى نسبا ، المالكى مذهبا ، الاشعرى اعتقادا ، الرحمانى طريقة ، الهاملى مسكنا • قصده طلبة العلم وأخذوا عنه ، فانتفعوا بكلامه وانتهت اليـــه الرئاسة فى العلـــم بالمغـــرب » • (1)

شب الحفناوى فى بيئـة كلها علـم ودراسة ، فتتلمذ على أبيه الذى مهد له سبل الدراسة ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد ذلك درس عند الشيخ بن عبد الرحمان بزاوية الهامل ، ثم انتقل الى زاوية تسالنت بمدينة أقبو ببلاد القبائل ، ذات الشهرة الذائعة، ليأخذ العلم عن الشيخ بن بوداود • فاجتهد وبرع فى المذهب المالكى والعلوم اللسانية كالقواعد والادب ونحوها ، ومنها سافر الى نفطة بتونس ليتم دراسته بها على يد الشيخ على بن سيدى المكى بن عزوز (2) • ويمكن القول بأن الحفناوى تثقف ثقافة واسعة ، فدرس أصول الفقه والتوحيد ، وتفسير القرآن ، واضطلع فى العلوم الاخرى كالادب وغيره ، والى جانب ذلك أكمل معلوماته بدراسته اللغة الفرنسية ، وقد تتلمذ على الاستاذ أرنو الذى قال عنه : « هو سيخى فى العلوم العصرية ، ومعلمى فى فهم اللغة الفرنسية، ومساعدى على طلبها ••• لازمته فى جزيرة (المبشر) وكان مديرها وأنا كاتبه لمدة اثنتى عشر سنة » • (3)

دخل الحفناوى الوظيف الفرنسى ، وكان أول عمل قام به محررا فى جريدة (المبشر) التى كانت تصدر باللغتين العربيه والفرنسية ، وذلك لمدة اثنين وأربعين عاما ، أى من سنة 1884 الى 1926 • وكان ينشر بها مقالات فى شتى المواضيع ، فى الاقتصاد

(1) أبو القاسم الحفناوى بن الشيخ : **تعريف الخلف برجال السلف** ، الجزائر ، 1907 ، ج 2 ، ص 336 •

(2) مارت وادمون قوفيون ، **كتاب اعيان المغاربة** ، الجزائر 1920 ، ص 156 •

(3) الحفناوى ، ج 2 ، ص 39 •

والاجتماع وغيرها ، واثناء ذلك شغل منصب استاذ لتدريس الشريعة الاسلامية بالجامع الكبير بالعاصمة ، وعين أيضا لمنصب الافتاء المالكى به سنة 1936 ، وهو منصب لا يتقلده الا من كان ذا معرفة كبيرة فى شؤون الدين والقضايا الشرعية والاجتماعية ٠ ويذكر مؤلف (كتاب اعيان المغاربة) : « ان الحفناوى كان ذا صدر واسع متسامحا ككل مسلم ، سافر الى فرنسا عدة مرات ، فأضاف الى ثقافته اللغوية ، ثقافة فى العلوم الطبيعية ، مكنته من القيام بأبحاث اقتبسها ، ونرجم بعضها من الكتب الفرنسية ، فى مادتى الفلك والكيمياء وغيرها » (4) ، وقد نشر هذه الابحاث بجريدة (المبشر) ٠ ويمكن لنا ان نذكر بعضها : صلاحية عدة نباتات قوتا للانسان ـ تركيب الهواء ـ تركيب الماء ـ ذكر المغناطيس وخواصه ـ الحكمة بأنوارها فى الكهربائية وأسرارها ٠ ويبدو أن هذه المقالات التى كانت ترمى الى تثقيف الجزائريين ، وجعلهم يسايرون عصرهم ، لم تنفذ فى الامة نفوذا يذكر ، لان الامة كانت لا تهتم بالمنشورات الصادرة عن الولاية العامة (5) ٠ ومن المقالات الهامة التى نشرها بنفس الجريدة مقال بعنوان : ارشاد المتعلم سنة 1887 يصور فيه الحفناوى حالة اللغة العربية بالجزائر ، ويقترح تبسيطها حتى يتسنى للجزائرى والاجنبى تعلمها ، ويأمل فى الاخير ان تكون متساوية مع اللغة الفرنسية ، ولعل فى هذا اشعار الجزائريين بالخطر الذى يهددها ٠

ولم تفت الحفناوى فرصة زيارة الامام محمد عبده الى الجزائر سنة 1903 ، فاتصل به ، وحضر المحاضرات التى القاها ، ودارت مناقشات بينهما ولا سيما اثناء تفسير سورة العصر (6) ، وان دل هذا على شىء فانما يدل على المكانة التى كان الحفناوى يحتلها فى الوسط الفكرى ، بحيث قضى معظم حياته بمدينة الجزائر محتكا بجوها الثقافى ، مع معاصريه امثال ، على بن الحاج موسى ، عبد الحليم بن سماية ، ومحمد السعيد بن زكرى وعلى العمال ، ومحمد الكمال ، وعبد القادر المجاوى ، ومحمد

(4) قوفيون ، ص 153 ٠
(5) سعد الدين بن أبى شنب « النهضة العربية الجزائرية ، فى النصف الاول من القرن الرابع عشر للهجرة » ، مجلة كلية الآداب ، العدد الاول ، 1964 ، ص 48 ٠
(6) قوفيون ، ص 157 ٠

ابن أبى شنب وكل هؤلاء كانوا يكونون كتلة المحافظين المتفتحة (7) ، التى نـــادت بتشجيع العلم باللغة الفرنسية ، وحمل رسالة فرنسا الحضارية الى الجزائر • وقد كان الحفناوى أحد هؤلاء ، اذ نادى بالتقدم والعمل على التوفيق بـــين المجموعة الفرنسية والجزائرية ، وهذا لم يمنعه فى الواقع من أن يكون من أشد المتحمسين للاسلام •

ساهم الحفناوى فى النهضة الجزائرية فى بداية هذا القــرن ، وكان من مظاهرها انتعاش الصحافة العربية ، وتأسيس النوادى الثقافية والجمعيات ، ومن بينها الجمعية الرشيدية التى كان الحفناوى مشاركا فيها بالقاء محاضرات سنة 1907 • ومن الاهداف التى كانت تسعى اليها هذه الجمعيه ، التقدم والتعلم وتطوير المجتمع الجزائرى بجعله مجتمعا حديثا ومتنورا بـدل بقائه مجتمعا تقليديا قديما (8) • وأهم ما ساهم بـــه الحفناوى فى النهضة الجزائرية ، تأليفه لموسوعة تراجم شخصية فى جزءين تناول فيها مشاهير الجزئريين الذين ساهموا فى التاريخ السياسى والثقافى لبلادهم ، وقد نشر هذه الموسوعة تحت عنوان : (تعريف الخلف برجال السلف) ، ولم يقتصر اهتمـام الحفناوى على جانب احياء التراث الثقــافى فحسب ، بل كان اهتمــامه منصبا ايضا على الجانب العلمى ، باقتباسه وترجمته لكتب علمية فرنسية وهى :

1) رفع المحل فى تربية النحل •

2) القول الصحيح فى منافع التلقيـح •

3) الخير المنتشر فى حفظ صحة البشر •

وهى كما نلاحظ كتب علمية ذات مواضيع مستمدة من الحياة الواقعية ، تستهدف توعية السكان فى المجال الصحى • وقد استطعت ان أعثر على الكتاب الاخير ، وهو كتاب فى الطب ألفه الطبيب العسكرى دركل وعربــه ميرانت والحفنــاوى ، ونشرتــه مطبعة فونتانا سنة 1908 ومما جاء فى مقدمته : لا يكفى للمواطن الصالح ان يعالـج نفسه عند الاطباء الذين أنعمت عليه الحكومة بهم على جميع رعاياها المسلمين ، وانمـا

---

(7) أبو القاسم سعد الله ، **الحركة الوطنية الجزائرية** ، بيروت ، 1969 ، ص 172 •
(8) نفس المصدر ، ص 163 •

ينبغي له ان يشتغل هو بنفسه ، بأخذ الاحتياطات التى تحفظ صحته ، وتدفع عنه الامراض الشائعة · وهذا الكتاب مقسم الى ثلاثة أبواب ، تناول فى كل باب مرضا من الامراض وكيفية أخذ المواطن احتياطاته منها ، وقاية منها ·

كتاب تعريف الخلف برجال السلف :

وهو الكتاب الذى ساهم به الحفناوى فى احياء التراث الجزائرى القديم ، ويعتبر من مظاهر النهضة الجزائرية فى بداية هذا القرن ، وهى احياء الاعمال التاريخية كتعبير عن الوجود القومى الجزائرى · وقد ظهر بعد نشر أعمال كل من ابن عمار (نحلة اللبيب) وابن مريم (البستان) والورتلانى (نزهة الانظار ـ الرحلة) والغبرينى (عنوان الدراية) والملاحظ ان هذه الاعمال نشرت فى عهد الوالى العام شارل جونار الذى كان على رأس الادارة الفرنسية والمعروف ان جونار أبدى اهتماما وتعاطفا مع الوجهة الحضارية الاسلامية فى الجزائر ، ففى عهده بنيت المدرسة الثعالبية بمدينة الجزائر ، وانتعشت الصحافة العربية ، وهو الذى أشار للحفناوى بوضع كتابه هذا ·

تناول الحفناوى فى كتابه هذا حياة شخصيات ، عاشت بين القرن العاشر المسيحى ، وبداية القرن العشرين · وقد نشرته مطبعة فونتانا سنة 1907 · ومما جاء فى مقدمته قوله : « أما بعد ، فالظاهر ان القطر الجزائرى ، قد اجتهد قديما فى طلب العلم بجميع أسبابه ، وأتاه من سائر أبوابه ، ووقف على معلومه ومنقوله ، فتمكن من أصوله وفصوله ، وكان لعلوم وقته جامعا ، ولراياتها رافعا ، مثل أخويه المغربيين الاقصى والادنى ، فظهر فى الاقاليم بدره واشتهر فى التاريخ قدره » (9) · وتبدو من هذا النص رغبة الحفناوى فى اعطاء الجيل الجزائرى صورة لماضيه ، والقاء الضوء عليه بعد ان أوشك على الاندثار · ويؤكد ذلك قوله : « هذه اسماؤهم وتراجمهم مزاحمة لاسماء وتراجمة اعيان الزمان المتيقظين لحفظ الطبقات العليا من عالم الاسلام فى بطون الدفاتر لئلا تقع فى أغوار التناسى » (10) ·

---

(9) الحفناوى ، ج I ، الصفحة الاولى ·
(10) نفس المصدر ، ص 2 ·

ومما لاشك فيه ان الحفناوى قد اطلع على التراجم العربية القديمة كطبقات بن سعد ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وكتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى الاندلسى . وغيرها ، فأراد ان يتبع خطاهم . ويمكن ان نضيف شيئا آخر ، وهو أن القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، كان عصر التراجم فى أوروبة ، ولعل هذا كان أحد الاسباب التى دفعته الى وضع كتاب تعريف الخلف .

لقد ساعدت الحفناوى مكانته فى الوسط الثقافى على جمع المصادر التى أخذ أو نقل عنها ، وهى مصادر هامة جدا . ولقد رأى ان يقسم كتابه الى قسمين ، ضمن القسم الاول تراجم لعلماء وجد قوائمهم فى المدرسة الثعالبية (11) . أما القسم الثانى فلتراجم من علماء البر الجزائرى ، ومن الاقطار الاخرى كالسودان ، والمغرب وتونس والاندلس (12) . ولم تقتصر تراجمه على طائفة دون الاخرى فقد ترجم للعلماء والفقهاء والادباء والقضاة ، وبعض السياسيين ، كما ترجم للمتقدمين عنه ولمعاصريه ، وقد ساعده على ذلك اتصاله بهؤلاء .

مصادر تعريف الخلف :

اعتمد الحفناوى فى كتابه على ثلاثة أنواع من المصادر وهى :

1) الكتب القديمة بالنسبة للتراجم القديمة .

2) الاتصال المباشر ، وهذا بالنسبة لتراجم معاصريه .

3) المراسلات ، وتشمل مراسلة العلماء ليمدوه بالمعلومات التى تنقصه . فبالنسبة للكتب القديمة أخذ الحفناوى أشهرها (13) ، مثل نيل الابتهاج لاحمد بابا التمبكتى ـ وقد اعتمد عليه كثيرا ـ وسلوة الانفاس لجعفر بن ادريس الكتانى . وسلك الدرر

---

(11) يحتوى الجزء الاول من هذا الكتاب على ستة وخمسين ترجمة لعلماء ومشايخ من الجزائر .

(12) يضم الجزء الثانى حوالى ثلاثمائة واثنين وستين ترجمة للفقهاء والعلماء والقضاة وغيرهم .

(13) سجل الحفناوى مصادره فى مقدمة الجزء الاول من الكتاب ، اما بعض المصادر الاخرى فقد كان يذكرها عند بداية كل ترجمة أو فى نهايتها .

للمرادى ، وخلاصة الاثر للمحبى ، وصفوة من انتشر للافرانى المراكشى وغيرها • ويذكر الحفناوى انه وجد صعوبات فى الحصول عليها فهو يقول : « ولم أعثر على هذه الجملة من كتب التاريخ بعد البحث الطويل فى مضافة ومحاولة مساجن المؤلفات بكل حيـلة ووسيلـة (14) •

أما النوع الثانى من المصادر ، فهو الاتصال المباشر ، بحيث كان اذا أراد ان يترجم لمعاصريه ، وللعاملين معه فى التدريس اتصل بهم ليمدوه بما يحتاج من معلومات وأخبار تخصهم ، وبهذه الطريقة سجل حياة عبد القادر المجاوى ، والعمالى، وابن زكرى وحمدان الونيسى وغيرهم • والنوع الثالث من المصادر فهو المراسلة ، وقد كان اذا لم يعثر فى مصادره على شخصية من الشخصيات راسل أصدقاءه ومعارفه ملتمسا منهم معلومات تنقصه ، وكثيرا ما كان يذكر أنه راسل فلانا فأطلعه على كذا وكذا •

طريقة الحفناوى فى الترجمة :

ان طريقة الحفناوى فى الترجمة طريقة الكتاب الاقدمين ، فهى عبا رةعن سرد مع وصف لحياة المترجم له ، يعمد فيها كثيرا الى السجع الممل احيانا ، مما يجعل طريقته بعيدة عن المنهج العلمى للبحث التاريخى ، فهو يأخذ الاخبار من كتب سابقيه ، وينقل تارة حرفيا ويقتبس منها أخرى دون نقد أو تعليق • وأغلب التراجم التى جاء بهـا كانت منقولة نقلا حرفيا ، ويمكن القول انه ذهب مذهب بعض كتاب السير الاولين الذين كانوا يركزون اهتمامهم على نقل الاخبار فقط (15) وعليه لم يراع قواعد البحث الحديثة والاغراض التاريخية فى عصرنا •

وبالرغم من طريقته التقليدية ، فان كتابة الحفناوى لم تخل من نقد لبعض الكتب ، مثل البستان لابن مريم ، وعنوان الدراية للغبرينى ، حيث عبر عن ذلك بقوله : « لما فى نسختيهما من المسخ الفاحش فى الكلمات » (16) وحرص الحفناوى على ذكر مصادره

---

(14) الحفناوى ، ج 1 ، ص 6 •
(15) سعد الدين بن أبى شنب ، النهضة العربية فى الجزائر ، ص 49 •
(16) الحفناوى ، ج 1 ، ص 8 •

حرصا شديدا ، وهو شيء أساسي في كتابه التراجم ، وكان يرى أن صحة الخبر وكذبه تقع على كاهل صاحب المصدر ، وهذا الموقف شبيه بموقف العلماء العرب والغرب في العصور الوسطى . اما اذا شك في الرواية فانه كان يستعمل اصطلاح « الله أعلم » وهو تعبير يدل على التحفظ أو عدم الجزم بالرأى .

ان الحفناوى اثناء ذكره لهذه المصادر ، لا ينظمها تنظيما كرونولوجيا (17) ، فعوض ان يبدأ بذكر المصدر القديم كان يقلب الوضع ، بحيث يبدأ بالمصدر الحديث ، فهو عندما ترجم لاحمد بابا التمبكتى ذكر ما جاء من اخباره في كتاب القادرى من القرن الثامن عشر ، قبل ذكر ما وجده في كتاب اليفرنى من القرن السابع عشر (18) . وعند ترجمته لابن قنفذ القسنطينى بدأ بذكر ما جاء من معلومات في كتاب (البستان) لابن مريم من القرن السادس عشر قبل ذكر مصدر أحمد بابا التمبكتى «نيل الابتهاج» من القرن الخامس عشر (19) . ومما يؤخذ على الحفناوى ، أنه لا ينقد ولا يعلق على الاخبار التى يأتى بها ، فكثيرا ما كان ينقل أشياء غريبة ، مثل بعض المعجزات ، دون أن يراعى ان كان ذلك يقبله العقل أو يرفضه . فقد ذكر ان العالم سيدى يحيى العيدلى دفين مدينة بجاية استطاع ان يحيى ثورا بعد أن كان قطعا قطعا (20) . وبهذا يمكن القول بأن الاسطورة لم تجد لديه أى نقد يذكر .

ومن الامور التى ينتقد عليها الحفناوى ، مبالغته في الوصف واستعماله للالفاظ الفخمة (21) ، وهذا الاسلوب اتبعه بعض الاقدمين الذين كان يهمهم استعمال الالفاظ الجميلة دون مراعاة صحة الاخبار ، حيث كانت الكتابة التاريخية تعتبر لونا من ألوان

(17) سعد الدين بن أبى شنب : « نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين للجزائر » المجلة الافريقية ، سنة 1956 ، ص 478 .
(18) نفس المصدر ، ص 479 .
(19) نفس المصدر .
(20) الحفناوى ، ج 2 ، ص 587 .
(21) نأخذ على سبيل المثال وصفه للعالم بن مرزوق الحفيد حيث يقول عنه في الاول ص 124 : « العلامة الحجة ، الحافظ المحقق الكبير ، الثقة الثبت ، المطلع النظار ، المصنف التقى ، الصالح الزاهد ... » .

الادب · ويؤخذ عليه أيضا ذكره الاشعار فى كثير مـن التراجم ، ولاسيما تلك التى قيلت فى المناسبات ، وخاصة فى الجزء الثانى من الكتاب ، فهو يسرد ما وجد بين يديه من أشعار ، ولعله كان يذكرها حتى يعطى للمترجم أهمية كبيرة · ويمكن القول ان كثرة ذكره لها ، تكاد تجعل من هذا الكتاب موسوعة أدبية ·

وكثيرا ما كان الحفناوى يخصص صفحات تزيد عن العشرة لفقيه أو عالم واحد ، ولكنه لا يخصص سوى صفحة أو أقل منها لآخر · وقد يعود ذلك الى أهمية الشخصية التى يترجم لها فى نظره ، أو لغزارة المعلومات التى وجدها عنها · ومما يلاحظ عليه هذا الكتاب هو الاتجاه السياسى الذى تدخل فى اختياره للشخصيات المترجم لها ، فالحفناوى قد أهمل ذكر بعض الشخصيات الهامة ، ومن بينها الشيخ الحداد رئيس الطريقة الرحمانية الذى لم يذكـــره تماما ، ويمكن رد ذلك الى خوفه من التوغل فى الشؤون السياسية ·

وبالرغم من النقائص الموجودة بالكتاب ، فان (تعريف الخلف) يعتبر من أثمـــن الكتب · ويمكن القول بأنه تكملة لاعمال بن مريم ، والغبرينى وغيرهما ، فللحفناوى فضل كبير لانه استطاع ان يجمع ما كان مشتتا ، وان يضيف اليه معلومات نفيسة عن عائلته ، وخاصة فى الجزء الثانى من الكتاب ، ولولاه لضاعت كلها · وله مزية كبرى فيما ذكره عن مؤسسى بعض الزوايا ومشايخها ، مثل زاوية الهامل ببوسعادة وزوايا بلاد القبائل (22) · وهذه المعلومات لا نستطيع العثور عليها الا فى كتابه ، والى جانب ذلك أفادنا الحفناوى بأخبار عن معاصريه وبفضله لحقتنا معلومات استخرجها مـــن الوثائق العائلية التى اطلـع عليها معاصروه من العلماء ، فبالرغم من جهلـه بأســاليب البحث العلمى ، فان الحفناوى انفذ لنا الكثير من المعلومات التى تتعلق بالتاريخ الثقافى فى الجزائر والمغرب العربى عامة ·

---

(22) سعد الدين بن أبى شنب · « نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين بالجزائر » ص 478 ·

مراجع البحث

1 ـ ابن أبى شنب سعد الدين :

« نبذة عن بعض المؤرخين العرب المحدثين بالجزائر » المجلة الافريقية ، سنة 1956 .

« النهضة الثقافية فى الجزائر » مجلة كلية الآداب العدد الاول ، 1964 ٠

2 ـ ابن الشيخ الحفناوى بن أبى القاسم :

تعريف الخلف برجال السلف ، جزءان ، الجزائر 1907 ٠

3 ـ سعد الله أبو القاسم :

الحركة الوطنية الجزائرية الطبعة الاولى ، بيروت ، 1969 ٠

4 ـ قوفيون ، ادمون ، مارت :

كتاب اعيان المغاربة ، الجزائر ، 1920 ٠

5 ـ أعداد من جريدة المبشر باللغة العربية ٠

حرب التحرير الوطني

1960 ــ 1962

الحدود الغربية ــ منطقة الشمال

عبد المالك واسطي
تعريب د. محمد بلقراد

خرجت الفصيلة الثانية أمس، عمل خفيف ــ بنغالور ــ ثلاث مرات فى فترات متساوية وفى ظرف بضع ثوان مرت كالبرق . قاتلت المدفعية فور الانفجار الاول ولم تتوقف الا بعد زمن طويل ، لا شك أن كشافات النور قد علقت بأحد ، سنعرف الليلة بوساطة التموين ما قد حدث . خسائر ... لا أجرؤ على تصور ذلك .

ربما يتفق ان احسه أولئك : رفاق الفصيلة الثانية ، قطاعهم جبلي، نجاد ووهاد تخفى الظهر فىالرجوع وتسمح بقليل من الاستراحة ان كان ثم أحد يجب حمله . ووجدت الرغبة والوقت والشجاعة أما نحن ففى السهل . أرض سوداء ، عفنة بأشواك تدمى جلدك وتمزق يديك وركبتيك

(*) نالت هذه القصة الجائزة الثالثة فى مسابقة مجلة التاريخ «فاتح نوفمبر 1954»

ونفسك · أشعر أن لن يقع لنا شيء هذا المساء ، أنا شبه متأكد من ذلك ، نأتي دائما بعد الكتيبة الثالثة · ويوم يشعر بنا من هم تجاهنا لن يرجع الكثير منا ولن تقرع بعد أصواتهم اسماعنا · والقمل يوجد منه حتى في جواربنا ، يتكاثر في ليالي الشتاء ويغير على حلقات الصوف الغليظة حيث الدفء والحياة · اذا غفت جسومنا المحطمة بالجرى المهتاج أمام القنابل والرصاص يهب القمل من نومه بدوره ويشن غاراته على ما بقي لدينا من وعي وشعور وعلى آخر أحلامنا النهارية ·

حشرات شاحبة ، صامتة ، تختفي مثلنا ، هنا نختفي جميعا · الذين تجاهنا يختفون في الليل ونحن نختفي في وضح النهار · كل منا يختفي في صمته ، وفي الصمت الذي يفرضه علينا الخوف من الآخر ، الخوف من هذه الحتوف المفاجئة الخاطفة التي يبعثها بعضنا على بعض في حدود الليل والنهار · قد جعلني القمل أشعر بأنه تعود هذه الايقاعات فهو يألف مسيراتنا الطويلة وأتعابنا وأمزجتنا ·

وحين يعتدل الجو تنعقد جلسات خفية للفلي المنظم في مأمن من الانظار ومن ألفاظ الصداقة ، نبقى صموتا فاحصين برأى العين أثناء ملابسنا بحثا عن أوكار القمل هذه ، بلا سن ولا هدنة ، في الليل نمنح القمل مهلة ، ندعه وشأنه ، ولكنه لا يأتي أبدا · يشن القمل علينا حشوده ووخزه حين يعلق النوم بأهدابنا ويصرعنا على الارض ـ قملنا ـ جلسات الفلي هذه مرعبة ، حوار يحاك ويستمر طويلا مع وجوه بعيدة · لكل منا أشباحه التي تزوره في آونة الفراغ هذه · هذا له أمه وهذا له طفله عبر الزمان والحرب الحاضرة هنا ـ قملنا ـ تعلمت كيف أحاربه ، قليل من فتات البلاستيك انزعه من البنغالور وأزرعه في أثناء لباسي ·

والبلاستيك منتن ، والرائحة المتصاعدة منه توقف هذه الضيوف الملحة عند حدها · وتضرب حولها سياجا ثم تطردها الى ملبس آخر والى جسم آخر محطم بالتعب، ولكن القمل يعود دائما · يقال انه ليست المقاذر هي التي تمسك به ـ رائحة الموت ـ

وصل جندى جديد أمس مع المؤونة • حلة شبه جديدة، حذاء جديد ، سلاحه فى كل مكان الا بجانبه • يوزع سجائر كاملة ، سجائر حقيقية من التبغ الجيد • قد لا يكون محافظا سياسيا ، ولو كان أياه لما تصرف هكذا • ثم من أين جاءه هذا الاطمئنان الهادىء ؟ له بندقية ، سلاح الجندى الماشى ، سلاح الجوال رامى الرمان •

اذا بقى الجندى الجديد بيننا تكون الحراسة أقل اتعابا لنا من الآن فصاعدا ، سنستطيع أن ننام لحظة بعد السد ، بعد المنطقة الحرام ، نعم • شريطة أن يدوم ، شريطة أن يبقى لنا •

يتحدث كثيرا ، أنا واثق بأن هذه هى المرة الاولى التى يحاذى فيها رجال السد ، يقص قصته على من يتفضل بالاستماع اليه ، ولكن من ينصت اليه • هنا كل ليلة تمر تنقص من ثرثرته ، مثلنا فى أول أمرنا ، كنا دائما هناك ــ بألفاظ ، باشارات ، بكل ما من شأنه أن يعيننا على كظم القلق القذر الذى يسبق الليل • المنطقة المحرمة ، السد ، شبح الموت القلق أى الخوف ، هكذا ــ فى الايام الاولى الابتسام سهل ، وبعد ذلك كل شىء يمحى ، الوجوه تظلم ، والانظار تفر بعضها من بعض وتنحنى ، ونتعلم حين ذاك كيف ننتظر الليل كل ليلة ، هذه ، ليلة غد ، ثم الليلة التى تأتى من بعد ، ليلة السد وليلة المنطقة الحرام ، الليل دائما ، حيث يفلت الواحد منا من الليل سالم الجسم كاملا غير منقوص يشعر كأنه يعيش للمرة الاولى ، كيف نصف هذا الهذيان الاخرق ، هذا الكابوس الجنونى الذى يغمرنا كل مساء ؟

هاون • صفيحة قاعدة ــ أنبوب ذو 81 مم ، رجل مثلثة القوائم ، رمى منحن ، وسادن الهاون متأكد من أنه لا يعيش أكثر من ثلاثة أشهر على أكثر تقدير ، أربعة أشهر أو خمسة اذا لم تتدخل المصادفة فى الامر ــ ولا يستخدم الهاون الا فى القطاعات الجبلية ــ ويتخذ كثير من الرجال لاستخدامه والاحتفاظ به فى منطقة حرام، يذهب طائفة من الرفاق ويستقرون بعيدا فى الجهة الامامية تفاديا من الخروج العادى للدبابات وهذه لا تتردد أبدا اذا لم تتوقع حضور بازوكة فى جوار الهاون • ويخشى العدو الخسائر التى يسببها الهاون فى المراكز القريبة من السد • والذين يستخدمون الهاون يجب أن يؤدوا عملهم فى أسرع من البرق لانهم لا يكادون يطلقون القنبلة الثانية

حتى ينصب عليهم وابل من نيران الجحيم ، ومن جهة أخرى لا يطلقون أكثر من خمس قنابل أو ست • وأحيانا أكثر ولكن قليلا ما يتأتى ذلك لان مدفعية الجهة المقابلة لا تسمح لهم بأى مهلة رغم عدم فاعلية كشافات النور فى هذه المناطق والملاجىء الطبيعية التى يقع اختيارها باعتناء قبل اطلاق النار •

الهاون سلاح ثقيل ، صفيحة القاعدة وحدها تزن أكثر من عشرين كيلوغراما • الرفاق الذين يحملونها يجب أن يكونوا أقوياء جد حركين - يسرعون لكسب ثوان هى دائما ثمينة فى منطقة حرام ، قناة الهاون تقلع جلدك اذا قبضت عليها سهوا ، بيديك عاريتين فور اطلاق النار عند اشتداد حرارة الحديد ، تطلق النار على التخمين - وتقوم فعالية الهاون على الشاحن ومطلق النار ، وتسقط القنابل أحيانا على ظلام الليل فى وسط المركز المصوبة اليه • وأحيانا يأتى درس اطلاق النار الدقيق من الجهة المقابلة ، من الناس الذين نقاتلهم ، ويجب على مطلق النار أن يصحح تصويب القذائف بأسرع من البرق •

أما ما يخص الشاحن فيجب أن يكون ذا أعصاب من حديد ومقدار كاف من البراعة ليضع القنابل بعضها فوق بعض فى الانبوب المعد لها فى الهاون ويجب أن يتجاهل كلاهما مئات الانفجارات المحيطة بهما والشظايا المنطلقة من كل صوب والموت الوشيك الوقــوع •

وسدنة من هذا الصنف ذوو قيمة كبيرة فى نظر رفاقهم • والكتيبة الخامسة خبيرة بذلك حيث رأت فصيلة هاونها قد محيت كلها بسبب خطا ارتكبه شاحن • فقــد أطلق فى قناة الهاون والمعركة على أشدها قنبلة مقلوبة •

يتجنب الحديث عن الهاون • وان تبدلا فيما يخص هذا السلاح يعادل ادانــة نهائية ومحققة وموتا عاجلا •

كثير منا يتمنون أن يموتوا برصاصة ويقولون ذلك كثيرا • يبقى الجسم كامــلا غير منقوص ولا يكابد المرء ذات موته • فلا ألم ولا وعى بالنهاية • كل شىء يتلاشى ويمحى فى بضعة كسور من ثانية واحدة • ثم الهدوء • وفناء الإنسان فى شكل أشلاء ممزقة شىء فظيع • وننتهى دائما ممزقين بلغم أو محطمين بقنبلة •

ما من كائن حي ينبغي له أن يموت هكذا • حتى ولو كان بهيمة أو نباتا ـ هنا يتعلم الانسان ثمن الحياة •

اشعر احيانا ان العسكريين الفرنسيين لو واجهوا الخطر مثل ما نواجهه نحن ولو كان فى حوزتنا ضدهم عين السلاح لما أفرطوا فى الحقد واستخدام العنف • ان حياتهم فى مأمن من الخطر وراء الاسمنت المسلح • أما حياتنا فلا يبالون بها •

بنغالور • أنابيب طويلة من الرصاص محشوة بالبلاستيك • نتسلم منها عربات شحن مملوءة ـ وايقاد النار بسيط : مفجر وقطعة من فتيلة • نهجم على السد بالبنغالور • نضع كل ليلة أربعة أو خمسة منها فى كومة تحت شبكة الاسلاك الشائكة ثم نضرم النار فى الفتيلة فينسف الانفجار مقدار عشرة أمتار مربعة من السياج والاسلاك الشائكة مما يغطى ويحصر النظر • والانفجار هائل تجدده الالغام المزروعة فى أسفل السد وأوتاد الحديد •

ولكن الخسائر لا تدوم اكثر من صبيحة • والفراغ الذى يسببه البنغالور يملأه الجنود الفرنسيون فور طلوع الشمس • أوتاد أخرى ، سياج آخر ، حديد شائك كما لو كانت الكرة الارضية لا تنتج الا هذا • ولكن يجب الانتباه الى طول الفتيلة ـ عليها يتوقف خلاصنا ـ تذكرنا المدفعية بذلك دائما ، مرة من اثنتين نجد أنفسنا من جديد فى قلب أتون بينما نكون معرضين لعصف البنغالور ـ وقد يخدع الظلام بعض الرفاق فيضعون أحيانا الشحنة على مرأى من حصن العدو ولا يجدون الوقت الكافى لاتمام عملهم فيمزقهم رصاص الرشاش شر ممزق ـ ولذلك ينبغى ان يكون المرء كله حذرا وانتباها عند اضرام النار في الفتيلة ويجب ان تشتعل الفتيلة لأول وهلة لأن أدنى حس يطلق كشافات النور • والعمل خطر لا سيما عند سقوط المطر • لأن أعواد الثقاب اذا تبللت لا تلبث أن تتفتت عند الفرك • ولابد أن يبقى واحد منا فى المكان لفتح النار ويتوزع الآخرون على طول السد لتقليل المخاطر ، وحراق الفصيلة هو الذى يبقى • وهو حاضر لأجل ذلك • فأنا حراق ، مزيل ألغام •

والفتيلة حية دقيقة سوداء ينبغى ان يعتنى بوضعها فى ميسها دافئة فى ليالى الشتاء ، وعلى حرارتها تتوقف حياتنا •

أحلم بفتائل طويلة تمنح مهلة للابتعاد ، مهلة لاتقاء القنابل والرصاص ـ وهذه الفتائل التى فى حوزتى هى جزازات ـ مادة عزيزة توفر لقاء أى حياة ·

الرمان يروعنى ـ لا أحمل رمانتى على جسمى أبدا ـ امتياز جندى قديم ـ ان الرمانة شىء فظيع أسود وثقيل تحمل دائما على الكشح هى سامة ترض البشرة وتمزقها رغم وعاء الجلد الذى يحتوى عليها ، ما من احد يستخدمها · وقد اراد احد يوما ان يختبر واحدة من رماننا فى منطقة الجنوب · فلم يبق منه الا أشلاء دامية · انفجرت فى كفه قبل ان يلقيها · نقص تقنى فى صنعها · ومنذ ذلك اليوم اشتهرت القصة وسمع بها كل أحد واتقى كل أحد التفكير فيها ولكن ضد ماذا ، ضد من تستعمل ؟ فالحصون المصفحة بعيدة وراء خطوط الاسلاك الشائكة ـ آه الجنوب · لا سد ولا ألغام ولا دبابات ولا كشافات نور · يموت المرء من قيام مواجهة فى وضح النهار ·

خضر مجففة · دائما · أحيانا شىء من البطاطس · اللحم نادر · الذين يأكلون عن طيب قلب يمتع منظرهم · أتمنى أن تكون لى شهية وأن أستطيع أن آكل بنزاهة ـ من رآنا نمضغ فى صمت وفكرنا غائب كأننا نكابد عملا مرهقا ونأكل كرها ·

الخبز الذى ترسله لنا السرية هو بلا طعم · او بالاحرى له طعم الورق الجديد·أيامى ملأى بالفكرة فى طعام شهى فى الصورة الراشحة بأنوار الشمس : برتقالة ·

كم نحن من البحر الى حدود الجنوب ؟ أربعة آلاف ؟ خمسة آلاف ؟ جيش التحرير الوطنى · منطقة الشمال ومنطقة الجنوب · كتائب ـ سرايا ـ فصائل ـ مجموعات ـ فرق ـ ألفاظ · جماعات من الرجال مرابطة على امتداد الحدود الغربية · حرب هى أكثر من حرب ، براز متواصل حيث العنف والموت لا يفرضان أبدا أى هدنة · كل ليلة تنتهى بأمواتها الطقوسية مجازر طاحنة فى أعقاب النهار وعند انبلاج الصبح وحين عبور المحاربين بين المناطق أو انتقالهم الى الداخل · وفى وضح النهار يكتسى الاحياء والاموات برداء الصمت واذا أرخى الظلام سدوله يستأنف العمل من جديد ·

جاء الجندى الجديد على خط مستقيم من قيادة المنطقة · حيث كان سكرتيرا وكان أخرس حول سبب انتقاله · تبادلنا هذا الصباح كلمات · قد صار حديثه الآن أقل ·

أتينا أمس برفيق جرحته شظية قنبلة فى ركبته • هو يشعر الآن اعتمادا على سيما وجوهنا أننا صرنا لا نحسن الحديث ولا الانصات • وكلامنا يقتصر منذ زمن طويل على ألفاظ روتينية تدعو الى الحراسة والسير والمنطقة الحرام • ألفاظ ترهقنا وتغمرنا بعالمها •

المدفع الاستراتيجى - أكثر السلاح ايناسا • هو بندقية بسيطة : عقب بندقية وأنبوب طويل ورجل قصيرة بقائمتين ورصاص ذو قطر أربعة عشر مم - رجل واحد يكفى لحمله واستخدامه • ولكن يجب الاستعانة - فى منطقة - حرام برفيق لحمله بسرعة • تطلق ثلاث رصاصات أو أربع عندما يساعد على ذلك مركز اطلاق النار ، لا أكثر - ويقع رد الفعل بسرعة من قبل العدو وتنصب القنابل كالمطر بتدقيق فور اطلاق الخرطوشة الثانية •

المدفع الاستراتيجى هو منقذنا • نستخدمه لا ضد الحصون المصفحة ولا ضد المدفعية بل لاعماء عين هؤلاء وهى كشاف النور ، ان شبكة النور الساطع التى تسلمنا عراة لرصاص الرشاشات وقنابل المدفعية تنطفىء فورا عندما يظهر المدفع الاستراتيجى - يقع من قبل الجنود الفرنسيين المصابين بعمى مؤقت رد فعل أشبه بتصرف حيوان مفترس وضع فى قفص - فى الحين تقوم القيامة ويندلع الهول : قنابل مفجرة - اطلاق نار السد - هاونات ثقيلة - رشاشات - قذائف الدبابات الفظيعة • كل هذا فى أنوار الصواريخ المضيئة ينطلق بسرعة البرق ، كل أتاتين الجحيم تلقى على المنطقة المحرمة طوال ساعات لا تنقضى • ثم يخاطر كشاف النور ظنا منه أن الخطر قد مضى • لا شىء هل ذهب المدفع الاستراتيجى ؟ نعم • لا شىء • سحب من الغبار أثارها انفجار القنابل فقط • فلا يكاد العدو يطمئن حتى يدوى المدفع الاستراتيجى من مركز رمى آخر - وينطلق الجحيم من جديد بعنف أشد وشراسة أكثر - وبعد ذلك عندما يعود الصمت مرة أخرى ويشرع كل فريق فى عد أمواته ينطلق من قطاع آخر انطلاقا جديدا مدفع استراتيجى آخر • والنيران الجهنمية التى انطفأت هنا تندلع من جديد مرة أخرى من وراء التلال ومن وراء مخاوفنا •

ولا يبقى الجنود الفرنسيون عاطلين فى النهار مثلنا · بل يحرسون بانتباه منافذ المنطقة الحرام وحركات الاشخاص ، ويأملون أن يكتشفوا هكذا مقر الفصائل الصديقة ، والرفاق الذين عليهم أن يتنقلوا لسبب ما فى وضح النهار متسربلين فى جلاليبهم يجب أن يكونوا حذرين حتى لا يراهم العدو ، فإذا رأى منهم احدا اطلق عليه جنود مدفعية الجهة المقابلة قنبلتين او ثلاثا كما اتفق حتى يروا فى اى اتجاه يذهب ، ويدرس هؤلاء الجنود ـ من دون ريب ـ الوضع كل صباح على ضوء جزء السد الذى أغرنا عليه فى اليوم الماضى ، فان رجعنا للحين الى عين المكان فى مساء اليوم التالى فلا نكاد نجد الوقت للقفول حتى تنصب علينا القنابل بتدقيق مخيف ، ولعل العدو يرقم كل جزء من المنطقة الحرام ويهيىء هكذا رمى نيران كل ليلة يدلهم ظلامها ـ حتى عسكريو المراكز المتقدمة يعرفون بتدقيق بالغ كل زوايا وخبايا القطاع الذى يحرسونه ونسرى كل ليلة فى صحبة فصيلة لتنفيذ الاعدام والبندقية على الكتف فى حالة استعداد لاطلاق النار مهما كان الطريق الذى نسلكه للالتحاق بخطوط الاسلاك الشائكة ، والمدفعية هى هناك لتقطع علينا طريق الرجوع ·

والجنود الفرنسيون يلاحظون وحدهم فى بياض النهار حركاتنا بل العسكريون المغاربة هم أيضا يرقبون ويبقى منظارهم المزدوج مصوبا الى أجحارنا باستمرار ولكنهم جد كتومين للسر ـ ولا يزوروننا ابدا · فاذا توغلنا تحت ستار الظلام فى المنطقة الحرام تركناهم فى مأمن وراءنا ، ولا يعود حراسهم الى مراكزهم الا بعد صمت المدفعية الفرنسية وانطفاء كشافات النور ·

لا أدرى مم يخاف عسكريو المغرب لان الجنود الفرنسيين لا يستطيعون ان يشنوا أى غارة عليهم · فلو فعلوا لتعرضوا لنكبة ما فى حالة اتجاههم الينا ولما استطاعت مدفعيتهم أن تمدهم بأى اعانة · لا ـ أنسى الدبابات ـ أنا مقتنع أحيانا بأن المغاربة يخشون أن نستخدم ـ نحن ـ مدافع حقيقية ـ ومع هذا كثيرا ما تكون مراكزهم أنفسها عرضة للمدافع الفرنسية ·

قامت جماعة من العسكريين الفرنسيين بعملية تفتيش هذا الصباح فى المنطقة المحرمة الكائنة فى قطاعنا ، وكان يتقدمهم كلبان مقيدان ، وتحولوا عن طريقهم تحولا قصيرا

ذاهبين من جديد نحو مركز بيرى PERRET ورجعوا منه بعد زمن قصير لكن أقل عددا مما كانوا ـ فرقة على أكثر تقدير ـ وبعد أن وضعوا متفجرات على صناديق جروا كالسهام نحو السد • وقع انفجار مخيف ، ولعلها ألغام بلا ريب من النوع المدمر للدبابات وضعها رفاق هناك فى اليوم الماضى واستلفتت انتباه سكان المعقل المصفح • فقد اسدى الينا هؤلاء الجنود هكذا جميلا ، لاننا لا نكاد نذكر بالضبط المواقع التى دفنا فيها بأنفسنا هذه الالغام القوية ، وليس لنا خرائط طوبوغرافية تذكر المناطق الملغومة • نخفى ألغامنا قرب السد ـ ليكن ـ ولكن فى مكان غير معين ، ان لم يلاحظ العدو فى اليوم التالى كومات التراب الصغيرة هذه الحديثة العهد بالحفر تعهد الزمان والمطر يغمسها فى طى النسيان ، وان لزمت الدبابات مرة مخابئها وراء الاسلاك الشائكة تتفجر هذه الالغام بفعل انفجار قنابل أو شىء آخر أمام رفاق جدد آخرين او امام رفاق من قطاع آخر ، ولكن قد يلاحظ العدو احيانا آثار التراب الجديد هذه فيتزود اذذاك بمفرقعات وبمفجرات ويخرج الى منطقة حرام ليمحو ما كنا قد صنعناه نحن بالامس •

عدد الالغام المتنوعة الاصناف الكامنة هكذا فى منطقة محرمة لا يتصوره الخيال ، والعدو يزرع منها بلا انقطاع منذ سنين ، ونضيف اليها ألغامنا ، حتى لو انتهت الحرب يوما لا ارى كيف نحقق ازالة مفعول هذه الملايين من مكامن الحتوف ، والمدهش هو أننا كم نستطيع أن نكون عباقرة وديناميين عندما نتصدى للقتل •

وممارسة البنغالور وشظايا القنابل كممارسة الاراضى الملغومة تعود الجسم على ردود الفعل الواقية ـ نتصرف أمام ما نتلقاه من ضربات العدو كمخلوقات آلية ، وكثيرا ما نتقى الخطر قبل ان نعرفه وقبل ان نعرف كنهه بالضبط • بالطريقة التى نعرفها وهى القاء أنفسنا على الارض ـ أما ما يخص المدفعية فان ممارستنا للمنطقة الحرام ، علمتنا أن نفرق بين الفتائل المعدة لنا وبين التى تصوب لساقة جيشنا ، والصفير الحاد الذى تسمعه هذه الكتل القتالة يجعلنا نعرف مكان سقوطها وربما يحدث أننا لا نكلف أنفسنا مؤنة الالتصاق بالارض لاتقاء الشظايا ، لا أدرى كيف ، ولكن نعرف أيضا المحارس والمعاقل التى تنطلق منها الرصاصات الاولى بعد انفجار البنغالور ، وصمت

الليل الذى يحيط بهذه التحصينات يمكننا من التنبؤ بما ينذرنا به · والقضية هى قضية تعود ـ كما أظن ، وهذه الآلية هى التى تجعلنا نبقى ونبعث مع الشمس ، فنحن مدينون لها بالحياة باستمرار ولكن الجسم يبلى وردود الفعل ترتخى ، والمخاطر تكثر على الرفيق المتعب ويهده القلق والفكرة الملحة أن الخطوات التى نخطوها هى الاخيرة من حياتنا · كثير من الاصدقاء ماتوا وأكثر ما قتلهم التعب وتهيج الاعصاب ـ وفيما يخص هؤلاء فلا دخل فى اهلاكهم لدقة مدافع ورشاشات الجهة المقابلة ، ان جسمهم كان قد قبل الموت سلفا ، والرجل الذى يشرع فى التوجه الى السد بفكر فارغ أو بعيد فقط عن كل ما يحيط بنا يعرض نفسه لموت محقق ، هو نفسه خطر على الرفاق الـذين يسبقونه أو يتبعونه ، والجدد الذين يلتحقون بنا ـ ان كان الشقاء يطاردهم ـ يهلكون فور الخرجات الاولى للسد لأن أعصابهم وعضلاتهم لم تجد الوقت الكافى للتعود والهيمنة على الانفجارات التى تلتهمنا ·

ما أفظع الموت الذى يأتى مما لا نعلمه ، مما لم نعلمه قط ·

جنود الفرقة الاجنبية هم الذين يحتلون دائما المراكز المتقدمة والمعاقل المصفحة ، وهؤلاء هم الذين يخرجون أحيانا عندما يعرفون مكان جثة ما فى منطقة حرام ، ويسيرون صفا بعضهم خلف بعض ويخشون من ألغامهم أنفسهم أكثر مما يخشون ألغامنا ، وتتقدمهم دائما كلاب الرعاة الألمان ، ولعلهم يستصحبونها ليعرفوا أى طريق سلكنا بعد مناوشة الامس ·

مرت أربعة أيام على ذهاب الرفيق الجديد ـ تمزقت يده بانفجار مفجر تلمسته يده بتهاون ، وهى طريقة كطرق أخرى نختتم بها الحياة ، أو يتخلص بها من المنطقة الحرام والسد ، وليس هو بالاول الذى اختار هذا الخروج · قد عرفت الفصيلة الثانية حادثا من هذا النوع قبل أربعة أشهر ·

خسر رفيق ساعده الايسر برشاش صغير · أتساءل كيف صنع · وقع ذلك فى الليل أثناء الحراسة · ان الاصدقاء الذين كانوا نائمين ظنوا أن غارة وقعت من قبل رجال الجهة المقابلة · وهكذا انطلق كل احد فى الظلام والتعجل ·

منذ ذهاب الرفيق الجديد خرجنا خمس مرات ، وفى اليوم السابق ألقينا أنفسنا على السد مرتين فى عين الليلة ٠

تصل الينا الاوامر مع التموين اليومى دائما عند المغرب ، اذا كان لزاما علينا أن نذهب الى السد بكرة ينصحنا قائد الفصيلة أن نأكل بسرعة لاعداد البنغالورات ـ ويجب اخراج المفجرات وقطع الفتائل ، ولكن أؤخر كل مرة هذه العدد لآخر لحظة لامنح هكذا الاصدقاء مهلة يأكلون فيها ويتعودون مرة أخرى على السد الهائل ، وقبل الذهاب بدقائق يعين رئيس الفرقة الذين يسافرون ـ وأحيانا تخرج الفرقة كلها ، ولا نحصل من ذلك على هدوء أكثر ، نذهب الى السد كما هى العادة ـ كما يقع ذلك دائما ٠

تأتينا الاوامر من السرية ، وهذه تستقبلها من الكتيبة ـ اذا كانت القضية عملا معمما ، أى اذا كان لزاما على كل الوحدات وعلى كل الرجال أن ينقضوا على السد فان قيادة المنطقة هى التى تعطى الاوامر ٠ والاوامر ـ مهما كان مصدرها ـ لا تنقطع أبدا ٠ ان كتيبة تحترم نفسها هى كتيبة كفت عن عد رجالها الذين مزقتهم القنابل والرصاص ، ان فصيلة حريصة على سمعتها لا يزيد عدد رجالها على خمسة عشر رفيقا تجردت جسومهم من اللحم ـ الامر هكذا ، تقوم شهرة الاحياء عندنا على الاموات ، ولكن عندما نوجه نظرنا نحو السد مساء عندما تتحرك خطانا نحو المنطقة المحرمة لا يفكر أحد منا فى الذين تقدمونا الى طرق الظلام هذه ٠ ليس من أحد يفكر فى غد ـ يختلط الاحياء والاموات فى مآثرنا ومفاخرنا وفى هذه العزيمة التى ألفتنا كما تعلمناها نحن وتبنيناها عبر الليالى ، السد ، يشبه أن قوة خفية تبعدنا عن كل ما يربطنا بالحياة اليومية ، بالحياة ـ ألفاظ نرددها همسا ، ألفاظ سر لا ينبغى ان ننساها ، ولعل فى ذلك روابط تجسد رغبتنا فى الحياة مدة أطول ـ ممكن ٠

مهما جرت بيننا عبارات « صديق الكفاح ـ أخ الكفاح » ان موت الآخرين لا يؤثر فينا كثيرا ـ ولعل الامر هكذا لأن الليالى التى تنتظر تقطعنا عن الزمان الحاضر ـ وكثيرا ما حدث أن رجعت برفاق جرحى لم أقابل بعد منهم أحدا ٠ كنت أتألم ولم أفهم كيف صرت فى ذلك الى جمود العاطفة هذه ـ هذا يخيفنى لاشعر بشىء وننسى

الذين صاروا متغيبين الى الابد لاننا لا نتحدث عنهم قط · آباؤهم وامهاتهم اولادهم والذين ينتظرونهم هل يعرفون شيئا يوما ؟

اشتباك · أحد الالفاظ التى أدتنى الى هذا البلد ، عندما كنت طفلا لم أكن لأحلم الا بالاشتباكات ، وكنت أرانى فى كل حلم يقظة وراء رشاش مقاوما بمفردى أفواجا من الجنود الفرنسيين على قمة رابية علم أخضر وأبيض يخفق فى ريح الشجاعة والتضحية ·

ولكن الآن لم أعد أحلم ، ولم أعش الى هذا اليوم أى اشتباك ـ على أقل تقدير ـ كما كنت أتصوره فى أحلامى ، فى هذا القطاع الذى أعيش فيه منذ دهر على حسب ما يظهر لى ان واحدا من أبناء عمومتى تمزق جسمه بلغم ، مضى على ذلك عامان · الاخضر ـ كان قد بلغ سن ثمانى عشرة سنة ـ هو أيضا ـ من دون ما ريب ـ كان قد حلم طويلا بالبطولة والتضحية كيف يتصور أننا لم نحب أهواء طفولتنا هذه وسرابها ؟

ولدنا فى بداية الحرب ، ولدنا للحرب ، ولكن اين اليوم اولئك الرجال الجرحى أولئك الرجال المضرجون بالدماء والانوار ؟ الذين مروا على قريتنا فى ليالى المطر ؟ أين هم الآن · أولئك هم الذين علمونا نحلم بأنوارهم ·

قبل ان نتوغل فى منطقة محرمة نتفق على نقطة التقاء فى حدود المنطقة ، لا نستطيع أن نبقى مجتمعين قريبا بعضنا من بعض عندما نهجم على السد ، نقلل هكذا من المخاطر، والمخاطر لا تعد فى أرض الكابوس هذه ، عندما نتشتت نقلل من تعرضنا للخطر ولكشافات النور ولشظايا القنابل والمدافع والرشاشة أيضا · وعبثا يصول الضوء الضارى لكشافات النور على اشواك الغابات وعلى مجارى المياه فلا يمسك شيئا · ومن جهة أخرى ان كان الجنود الفرنسيون فى كمين فلا يشتبكون معنا جميعا فى آن واحد ـ والاصدقاء المتسربلون بظلام الليل حول المعركة فى استطاعتهم أن يلتحقوا بنا لاعانتنا أو لالهاء العدو على أقل تقدير ـ ذلك ما يفرق العدو شذر مذر ·

وعندما نجتمع ثانية فى نقطة الالتقاء نعد أنفسنا ، ونعرف حينئذ اذا كنا رجعنا جميعا من السد · وان تغيب واحد قفل واحد منا أو اثنان متطوعين فى فترة هدنة

ليأتيا بالغائب وأحيانا ننتظره فحسب ، وأحيانا تتغيب جماعة منا وترجع من دون أن تعرف ماذا وقع لكل واحد منهم ـ وكم رفيق لم يرجع من السد الا فى الصباح الباكر ، وكم رفاق لم يعودوا قط ٠

ان الجنود الفرنسيين لا يخاطرون كثيرا بأنفسهم لبناء الكمائن ، لا سيما فى قطاعنا المسطح جدا ٠ أنا على يقين أنهم يخافون هذا النوع من المغامرات لانهم يفتحون النار بأسرع مما ينبغى فور استماعهم لاى حس ، ولا ينتظرون الجواب لينسحبوا جريا ، ولا يحققون أبدا نتيجة اطلاقهم النار ـ ذلك ما يشجعنا على الاتيان بجرحانا ان كانوا ـ عند ما ينصب رجال الجهة المقابلة كمينا تبقى كشافات النور منطفئة ولا تكنس الارض بالضوء خشية كشف الكمين ـ وكشف الكمين معناه قتل من يجتهدون فى تنظيم القتل ٠ وكشافات النور فى حركتهم المستمرة تلح على الاماكن المختبئة حيث لا يكمن فيها أى خطر يهددنا ٠ وهكذا يأمل العسكريون الذين يسيرون شبكة النور أن يوجهونا على خط مستقيم الى الكمين الذى ينتظر ويرجو ، اذا شاءت ـ من جهتنا المصادفة أن يكون المدفع الاستراتيجى قد خرج لا يمكن حينئذ وصف هلع من فى الجهة المقابلة ، فور اعلان المدفع الاستراتيجى عن نفسه يفتح جنود الكمين النار على أى شىء كان بلا تمييز ويرجعون القهقرى بكل سرعة الى معقل من المعاقل تحت شؤبوب من الرصاص نطلقه عليهم لحماية أنفسنا ٠

ننتفع بهذه اللحظات الى أقصى حد اما لننسحب واما لاتمام العمل الذى أتينا لاجله : البنغالور ـ ومهما ظهر هذا غريبا لعل تلك الاوقات هى الوحيدة التى لا نخاف فيها شيئا يأتى من قبل العدو ـ من دون ما شك لاننا نعلم أن هذا الاخير لا يصنع شيئا ما بقى رجاله فى المنطقة المحرمة ـ وهؤلاء هم ضمان لنا أن المدفعية والرشاشات لن تتدخل ٠ نرى بضع قنابل وصواريخ مضيئة تحاول ان تعوض كشاف النور الاعمى مؤقتا ٠ وأثناء هذه الكمائن يتحمل الجنود الفرنسيون بدورهم خسائر خطيرة ـ يتركون دائما على أرض المعركة أمواتهم وجرحاهم ولا ياتون للبحث عنهم الا اذا انقشع ظلام الليل تماما ٠ وهكذا ينزف دما عسكريو الجهة الاخرى ـ فى المنطقة الحرام ـ مدرعين بالجلد والسلاح المتوهج ويموتون مكانهم قطرة قطرة بينما كان من الممكن جدا علاج جرحهم

ويجهز السواد والخوف على هؤلاء الرجال ويحرمانهم من كل اسعاف ، اذا طلعت الشمس يكشف النور الطبيعي ببطء جثثا شابة مسحوقة على شوك الغابات ، وفى هذا الوقت قد فات أوان التدارك - انقضت الحياة أرض مسطحة ، قطاع لا مخابىء فيه ولا صدوع - ومطلق النار بالبازوكة يتجدد نشاطه قبل ان يتحول الى البنغالور - مثلنا لان ارضا من هذا النوع لا تسمح باستخدام البازوكة · ما من أحد يفكر فى ارسالها الى صيد الدبابات لانه يعرف جيدا أن السلاح وسادنه لن يعودا من المغامرة - هنا فى هذه المنطقة تستطيع الدبابات أن تقوم بدوريات داخل السد أثناء الليل كله من دون أى خوف ، والارض التى تسحقها بكل سلاسلها هى أفضل واق لها، وان واحدا من كشافات نورها يكفى لانارة المكان المحيط حينا بعد حين عند سماع أدنى حس ·

لو لم يخف سائقو الدبابات الالغام او سبقنا لهم الى المنطقة الحرام لعين الغرض لأتوا لانتظارنا فى اسفل السد ، ان السلاح المخيف الذى يستخدمونه يحميهم ويزيد فى ادعائهم ولا يرحم · والدبابة تضاعف حذرها وحيلتها اذا احست بوجود بازوكة فى القطاع - تتماوت وتختفى كالاخطبوط وتشتبه علينا كثيرا جدا بأوتاد السد العملاقة وأديال السواد والضباب التى تلف الاسلاك الشائكة ، ولا تظهر الا بعد انفجار البنغالور لانها تعلم حين ذاك أنها وراءنا وأننا فى طريق العودة - رمى متوتر - قنابل أسرع من البرق - تنبح كلها فى آن واحد ·

مطلق نار البازوكة هو الوحيد بيننا الذى يعرف حقا نتيجة اطلاق نيرانه ، قد أحرق ست دبابات فى شهر عندما احتللنا أعالى العصفور ، رقم قياسى ، ولكن الالغام تكمن له - وهى التى تقضى عليه غالبا · مطلق نار البازوكة يجب عليه لاصابة الدبابة أحسن أن يحاذى السد ، يسير على رقعة من الارض لا يعرفها حيث ينتظره الموت ·

نطلق نار البازوكة أحيانا على المعاقل ، وهكذا تضيع صواريخ الروكت ويتجاهلها الاسمنت المسلح الغليظ ولو أصابته ، هنا لا نستخدم هذا السلاح ·

رصاص الرشاشات يشبه الابهام فى الغلظ ولا يدع لك الوقت لتكون ذا وعى بنهايتك ايا كان عضو جسدك الذى يمزقه ، بعضه ينفجر داخل الدبابات ، والرجل

المصاب يكون قد فارق الحياة عندما يسقط ما بقى منه على الارض ، نلقط سلاحه بسرعة ونتابع جرينا وبعد حين يرجع رفيق أدراجه ليسحب ما بقى من الصديق المدمر فى الصمت الصاخب داخل المنطقة الحرام ، بعد القنابل والشظايا ، واذا أصابت هذه الاخيرة شخصا لا تعزل هدفها مما يجرى فى المحيط ، شظايا رقيقة من الفولاذ المحمى احماء بالغا تنشر العظام أو تمزق اللحم بسرعة بالغة لا يشعر الجسد بها فى عين لحظة الاصابة بهـــا ٠

يفقد الجريح حياته بدون أى شعور ولا يفهم ولا يعى ماذا وقع له ، عندما ترتخى ركبتاه فجأة وتعترى اطرافه برودة هائلة ، وتنفجر بعض القنابل قبل ان تلمـس الارض بثانيتين أو ثلاث ، وشظاياها تنتشر فى الجو فى شكل دوائر فوق الرفاق اللاصقين بالارض ومن أصابته منهم شدته هذه اليها ، ونوع آخر منها ينفجر بعكس ذلك عندما يصدم الصخر والارض ٠

وشظايا اولئك تصعد الى نصف قامة الانسان وتشق الهواء افقيا وتبيد الرفاق الوقوف ، وبينما تتعلق الاعصاب بالانفجارات وصفير القنابل ينهار الجسم فجأة لا ندرى لماذا ٠ وتلك هى آخر ثوانى الوعى والحياة ، وكل شىء يمحى حول ذلك المساء فى الريح الباردة ريح النهاية ٠ وأحيانا يتلمس المرء جسده ويبحث وتتصاعد اليد لزجة بالدم ، لزجة بالموت ٠ أيبكى ؟ وذات مساء تعجبت من رؤية صديق كان جالسا وظهره متجه نحو السد غير مبال تماما بوابل من القنابل المنصبة علينا ، ولم يكن له أى اهتمام بالحاضر ، تقدمت بينما كانت الدموع تسيل من وجنتيه وقد منحتهـا البروق الساطعـــة من الانفجارات لونا كئيبا ، وظن هذا الصديق أن ساعته الاخيرة قد حانت ، قال : ان سائلا كان يجرى على ظهره ، والحقيقة أن الذى سال ليس دمه بل هو الماء الذى كان يملأ قربة الصفيح التى عليه والتى شقتها شظية قنبلة ، وأكثر من يهلك من القنابل ٠

والشظايا هم الرفاق الجدد ، هى قضية تعود وتجربة وردود فعل ، شباب يلتحقون بنا وقلوبهم طافحة بالاباء والحماس ، يقولون لنا : « وأخيرا نحن منكم » ٠ وما أقل ما نجد الوقت للتعرف عليهم واطالة حياتهم ٠

لا ينقض علينا الموت دائما من المساء وفلك القنابل أو من حصون الاسمنت المسلح التى تتورم بها التلال والروابى • بل هو كامن أحيانا فى أكثر الاماكن أمنا وسلامة من المنطقة الحرام • فى باقة من العشب الجاف ، فى مخابىء مسيل ماء صغير ، تحت أغصان يابسة ، وفرارا من مخاطر السماء نرتمى فوق الارض على صدورنا مسابقين شظايا القنابل أو شبكة الضوء الساطعة من كشاف النور ، وفجأة ينبجس الموت من الارض ، من باقة كلا أو من صخرة ندوسها ••• من الالغام ، هى فى كل مكان تحاذى خيطا خفيا تعلق به القدم فى سيرها فيطلق حولك فوهات من النار او فقط فى شىء ما : قطعة حديد أو علبة سردين فارغة أو علبة كرتون غسلها ماء المطر ـ ان الالغام تتمم عمل المدفعية والرشاشات ـ فالموت المتوقع هكذا هو وتد حاد من حديد مغروز باستمرار فى أعمق مكان من قلب كل واحد منا ـ نكل أمرنا الى المصادفة لاننا نعلم جيدا اننا لن نحترس الاحتراس الكافى فى سفح السد •

المنطقة المحرمة ملغومة ومنافذ شبكة الاسلاك الشائكة مزروعةبأجهزة شتى قابلة للانفجار ، وان أدنى حركة طائشة أو سهو كلمح البصر يطلق حلقة مفزعة من الحديد والنار تدك الارض ولن يبقى ممن داخل الحلقة الا أشلاء دامية أرجل بعظام بارزة مسحوقة ومزع لحم يعلوها الدخان والبنغالور الذى نستخدمه كل مساء يدمر الاسلاك الشائكة كما ينسف الالغام الموجودة فيها ، ولكن هل تبقى الالغام المنبثة فى المنطقة الحرام ؟ أحيانا ، ولكن يقع ذلك نادرا • هى بؤر انفجار عملاقة تلقى الارض على السماء السوداء وقد يفجر لغم آخر بعد انفجار البنغالور ـ فتشهد عند ذلك تفجرات ضخمة هائلة لا تتصور • ونتساءل هكذا كيف وبأى معجزة لا تسبب لنا الالغام أفدح الخسائر •

نصب الجنود الفرنسيون الالغام فى المنطقة الحرام فى كل الجهات فى رقعة من الارض حيث يكمن الموت متربصا واثقا بالكوارث التى يسببها عاجلا أو آجلا • والعجيب ان افتك الالغام بالناس ليست هى التى نخافها اكثر ، اريد ان اتحدث عن الالغام الضخمة ، وهذه تقتل حالا ولا تلقينا فى واقع الفناء ، يجرى الحديث عن الانفعال المألوف عند العدم بدون اى مرحلة انتقال • وهذا الانفعال انواعه شتى وشكله يختلف ، وعلاوة على ذلك قد بلغت براعة الناس الذين فى الجهة المقابلة حدا

جعلنا لا ندرى كيف نتقى تسيير جهازهم الذى يطلق النار · واذا مشينا نتقي بقدر ما يسمح لنا بذلك ظلام الليل،أسلاك الحديد المنصوبة على الصعيد أو الملقاة على الارض ـ واذا أطلقت المدفعية والرشاشات نيرانها الجهنمية وكلنا أمرنا بدون شعور منا الى عناية الله ـ وما أكثر ما يذهب بنا الخوف من الالغام الى عين الكمـــين وتبقى أعيننا وآذاننا وانتباهنا لاصقة بجلبة الليل والاشباح الماثلة أمامنا وننسى الطريق الـذى تسلكه أقدامنا وننسى الالغام ·

والالغام التى تثير أعنف الاشمئزاز والنفور فى قلوبنا والتى تحيل ساعات راحتنا واستجمامنا الى كابوس لا يمحى أثره لا تقتل وتجعلك تأسف على أنك لم تكن ضحية قذيفة أشد خطرا · كيف نتحدث عـن اللغـم بهدوء ؟ لا يفلت منه شبر من الارض صغير · يد واحدة تكفى لتغطيته · يكشف عنه الريح والمطر ، دقيق مخيف فى وضح الليل ، ينفجر تحت ثقل الرجل الماشى يمزق الرفيق الشقى ويلقيه طريحا على الصعيد حتى يعرى عظمه ويجرى دمه جدولا على الارض ويزحف المصاب ويجر جسمه رغـم الهلع والالم ولابد أن يدعو الصديق البعيد الذى يجب أن يأخذ حذره هو بدوره من ألغام النواحى المجاورة · وان حادثا من هذا النوع لا يأتى وحده · فالرفيق الذى يهب لاسعاف الجريح يطأ هو أيضا مرة من أثنتين لغما آخر · وأحيانا يجلس الجريح الاول المشدود الى الارض على لغم يجهز عليه بتمزيقه أشلاء ويموت الرجل منزوفا ويبدو على وجهه الجنون من الرعب وعدم الفهم ، كم اخوان فى الجهاد يجرون جسومهم المشوهة فى قواعد ساقة الجيش ، لا يحصون عدا ـ شموس محطمة الى الابد ـ ·

أيقظتنى المدفعية أمس بعد السد الذى ذهبنا اليه باكرا جدا أخبرنى الرفيق الذى عهد اليه بالحراسة فى ذلك الوقت أن ثلاث شحنات بنغالور انفجرت منذ قليل فى الحدود اليسرى من قطاعنا ، كانت القنابل والرصاص الخطاط تتطاير من كـــل صوب ـ وكشاف نور المركـز يرى PERRET كان يظهر منه أنه قبض على ضحيـــة وتعجبنا من اشتراك الدبابات فى المعركة · ودامت الانفجارات أكثر مـــن ساعـة وضاعفت فضولنا الصواريخ المضيئة المطلقة فوق المنطقة · واطلعنا هذا الصباح على

ما حدث ـ أخرجت فرقة من الفصيلة الثانية الى السد الاثنى عشر رجلا الذين كنا مشتغلين بهم أول أمس • قتل ثلاثة رجال وجرح أربعة ومشى رجل على لغم •

من الآن فصاعدا لن يمر مساء دون أن نخرج الى السد • ويجرى الامر هكذا بالنسبة الى كل الوحدات التى تحاذى السد فى قطاعنا ، فقد أقام العدو بطاريات مدافع على كل الروابى المشرفة على السد ، ومدافعوا هذه المراكز لا يهتمون بالتدقيق ، وتفتح كل المدافع نيرانها لادنى حس فى آن واحد ، نرى أيضا الدبابات فى الليل أكثر فأكثر ، كل هذا ينذرنا بليال طويلة الامد وبضراوة العنف والشراسة والرعونة •

الفرار من الخدمة العسكرية واغتنام فرصة دور الحراسة للفرار بعيدا جدا بعد ترك السلاح ، ملجأ • مدن المغرب الكبرى ، لكن أى ملجا وضد أى تهديد ؟ ننسى بسرعة بالغة من يذهبون هكذا • ونسياننا لهم أسرع منه لمن نتركهم صرعى الحمام بعد السد وبعض الرفاق يهربون من مراكز العلاج ، ما من أحد يبالى بذلك • وهذا أفضل ـ أسماء نضرب عليها فى القوائم ، أسماء نشطب عليها فى حافظتنا ، هذا هو الموت الذى يخشاه كل أحد : موت الخزى والعار • أتمنى أن ينسى أولئك الذين نكصوا وأن لا يذكروا • ليبعثوا من جديد فى الهدوء فى العالم الذى فضلوه ، ثم انه فى الجهة المقابلة أيضا يهرب العسكريون الفرنسيون،أنا مقتنع بأنهم يصنعون ذلك لاسباب أخلاقية وبأن التأكد من الموت العاجل لا دخل له فى تصرفهم ذلك ، وأعتقد أن الهروب لابد له من شجاعة كبيرة •

وصل الينا البارحة اثنا عشر رجلا عزلا بالمؤن ، ملابس جديدة وسجائر بكثرة • ذهبوا قبل طلوع النهار الى الفصيلة الثانية • شباب مثقفون جدا موجهون الى أركان حرب قواعد الساقية • كنا فى الطريق الى السد بعد وصولهم بساعتين ، وكانت الاوامر دقيقة فى أنه كان يجب علينا أن نريهم السد عن قرب بالغ قبل العمل ، الخوض فى القتال لاول مرة ان صح التعبير • وقد حملوا البنغالورات عند الذهاب ، ولكن فضلنا أن ندعهم متجمعين على العليق فى حدود المنطقة المحرمة لقد رجعنا جميعا، ما كنا لنستطيع أن نخاطر بالقائهم الى جانبنا على الاسلاك الشائكة ـ ليسوا متعودين

ولا يعرفون شيئا عن هذا العالم الخاص الذى تعودنا عليه بقوة الالف · ان أحدا من هؤلاء المتدربين أراد أن يودع عندى ساعته · ماذا كنت أستطيع أن أصنع بها ؟

وصلت الينا المؤونة على ظهور البغال ، طعام لاربع وعشرين أو لست وثلاثين ساعة ـ خضر مجففة وخبز مضى على نضجه عدة أيام · والغذاء الوحيد الذى نقدره جميعا هو القهوة ونتسلم منه كمية كافية ـ تؤثر القهوة فى أعصابنا كأنها دواء ذو خاصية هى حل عقد الاعصاب وتوجيه جريان الدم وتجديد الرغبة فى البقاء تغسل القهوة أفكارنا عند الذهاب الى السد وتمحو كربنا الذى يلصقه السد على عيوننا ونحمله معنا عند القفول ·

نشرب قهوتنا فى أقداح من ألومنيوم ، كل واحد منا يحتفظ بقدحه باهتمام بالغ ـ ومن فاتته جراية قهوته فاته لقاء طيب · اما الطبخ فان لنا رفيقا يضطلع به بسرور ـ وتسكن بعض الفصائل نسبيا قريبة من بعض الاسر المهاجرة التى ألقى بها هى أيضا بين بلدين ، بين عالمين · والسكنى بالقياس اليها من جهة المنطقة أو من الجهة الاخرى لا تتوقف الا على مرمى المدافع · وتعنى هذه الاسر بشأن الرفاق الذين يختفون فى النهار على مسافة قريبة ، تعد لهم طعامهم وتغسل لهم حتى ملابسهم ولابد من القول أيضا اننا لا نعد الاشياء التافهة التى نمنحها لها والتى تعينها هى أيضا على سد الرمق · اما ما يخص فصيلتنا فلا جيران لها الا صخور شاحبة تعصف بها الرياح وهذه الارض السوداء التى تحدق بنا والتى تنذر بنيران الرصاص والمدافع ·

الف طائرة استطلاع فرنسية تحلق على المنطقة الحرام كل طائرة من الشمال الى الجنوب ، وأحيانا فى الاتجاه المعاكس وأحيانا تعود فى المساء قبل أن تتلفع الطبيعة بمئزر الظلام ونسميها : « الواشية » أو : ت ـ 6 · هى طائرة لا تجاوز قوة نارها قوة رشاش خفيف ـ هى صغيرة ولا تكاد تخاطر بنفسها بالتدخل فى الليل ، تطير قريبة من وجه الارض وتكتفى بفحص المنطقة المحرمة فى أدق خباياها وتخبر بما تلاحظه فيها · اذا اكتشف سائقها أى شىء غريب رجع الى الميدان فنرى « الواشية » تحلق وتحلق فوق شجيرة ما كأحد الطيور الجوارح فى حالة الصيد ، تخبر هذه الطائرة غالبا فور طلوع الفجر بمواقع جثث الرفاق الذين قتلتهم المدفعية فى الليلة السابقة ،

تخرج دورية حينئذ الى المنطقة المحرمة تأتى لتتأكد من صحة الخبر فى مكان وقوعه . وأحيانا ليست الجثث الهامدة الا فخا فتأسف الدورية على خروجها من قلعتها . ولكن هذا نادر أو أندر من النادر ..

والطائرة ت ـ 6 لا تكاد تغامر الى جهتنا لان بندقية بسيطة تستطيع بسهولة أن تنتصر عليها والرشاش يسقطها بكل تأكيد ، ذلك ما قد حدث مرارا ، لذلك تحذر أن تبتعد من السد أكثر مما ينبغى . وفى الليل عندما نشن غارة جد واسعة تتحدى هذه الطائرة الظلام وتنذرنا من فوق رؤوسنا .

فى هذه الظروف فحسب تصير « الواشية » أنيسة لنا لانها فى عين الوقت الذى تخرق فيه ضوء القمر تقطع المدفعية حالا اطلاق نيرانها . ونغتنم نحن فرصة هذه الهدنة فى حال اضرامنا النار فى البنغالور لننسحب بأسرع سرعة ممكنة ما دام طائر الشؤم هذا يخترق أجواز فضاء قطاعنا .

استهدفت طائرة من هذا النوع قبل خمسة أيام فى وضح النهار قاعدتنا الخلفية الرئيسية فى وجدة : القاعدة بن مهيدى مستشفانا ، فقد أجهزت صواريخ الروكت التى أطلقتها هذه الواشية على بعض الجرحى . فنحن فى حالة انذار مستمر منذ وقوع هذا الحادث .. ونخاف من كل شىء ويجب أن نتوقع هل تكون الغارة من قبل العدو هكذا على رجالنا الجرحى أو العزل ، وهذا التوقع ينعكس طبعا على أعصابنا المكدودة أكثر مما يحتمل وهذا يزيد فى متاعبنا . والحراسة ، منذ حين ، لم تعد تفتر حتى فى وضح النهار ـ اذا جن الليل واتجهت خطانا الى السد شعرنا بوطأة التعب على كواهلنا . ان الاوامر التى بلغتنا تلح على الحراسة وعلى اليقظة ، أى طائل لنا فى الاستماع الى هذا . نحن الذين أوسعنا حياتنا تحذرا واحتياطا ؟

لقد فاجأت الشايب وهو يأكل قطعة خبز عليها معجون أسنان ، أنبوب تركه فى مكان ما أحد الرفاق الجدد الذين ينزلون عندنا والذين يزودون بكل شىء وبلا شىء ، لم ينقض عجب الشايب عندما أخبرته أن ذلك يصلح لتعهد الاسنان بالتنظيف . وقد أحرجتنى أسئلته ، لا يفهم كيف يفكر أحد فى ذلك بينما يعد معجزة حفظ حياته

كل ليلة فى السد • وتنظيف الاسنان بالفرشاة قبل السير الى المنطقة الحرام أمر لا يعقل فى نظره ، وصرت أعتقد أن الشايب أفلح فى حملى على أن أرى رأيه •

وقد التقطت أمس على طريق الرجوع ورقة مطبوعة دفعتها الريح وشغلتنى طوال النهار ـ شبه صفحة من جريدة ـ كتابة فرنسية وكنت أرجو أن تكون نصا مفيدا • مع الاسف لم يكن محتواها الا أسعار خضر وسباق وخيل ، وقد زاد هذا فى أسفى على أنى لم أقض زمانا أطول فى المطالعة قبل حمل البندقية • هنا طبعا لا محل لموضوع الكتب والقراءة • وغالبية الرفاق لم يسعدهم الحظ على تعلم القراءة والكتابة • هم رجال من الريف قد احتفظوا بوقتهم وطاقاتهم لخدمة الارض • وفى فصيلتنا طائفة من الرفاق يقرأون العربية قراءة جيدة جدا وقليل ما هم ، والكتاب القرآنى هو الذى حلاهم بهذا الفضل • ولكن لا جدوى لنا فى معرفة القراءة ولا فى القراءة أيضا ـ لفعل ماذا ؟ ربما يضر مضرة بالغة الاشتغال بما يجرى فى مكان آخر ـ وعلى الاصح ـ الاشتغال بما لا يجرى فى مكان آخر •

يثير فينا الرادار ذعرا عنيفا • ولم أر منه شيئا • ولا أكاد أدرى هل لمن فى الجهة المقابلة شىء منه حقا • جهاز يكتشف رجالا مساجين فى سيرهم ـ على حسب ما يقال ـ والاصدقاء هم متأكدون من ذلك • الواقع أن خطواتنا الاولى ـ فى المنطقة ـ فى أوقات أكثر مما ينبغى ـ يحطمها شؤبوب من القنابل كما لو أن شاهد عيان خفيا أخبر العدو بذلك • وعندئذ يفرض علينا ذلك أن نحتال ، ونتحول تحولات طويلة شتى عن الطريق المباشر لقطع المنطقة المحرمة والوصول الى السد ، وهذا يزيد فى المخاطر التى تهددنا لاننا نقطع هكذا رقعا عريضة من الارض نعرفها قليلا أو لا نعرفها تماما • وان قطاعا يشتهر بأنه تحت مراقبة الرادار يصير كابوسا مخيفا للاصدقاء الذين يجب عليهم أن يذهبوا اليه كل ليلة •

ويفقد هؤلاء كل مساء شيئا أكثر من ملكة الرؤية والكلام والفهم ويتجوف نظرهم • وان خوفا لا يوصف يأخذ بمخنقنا عندما نلقى بعضهم • ونحتفظ منهم بصورة لا تمحى، رجال صاروا لا يكسبون ما تقوم عليه الماهية البشرية ويؤثرون فينا •

وان كابوس الرادار يفرض نفسه علينا شيئا فشيئا · وينتظر العدو احيانا أن نقترب جدا من السد أو نتقدم تقدما عميقا فى المنطقة المحرمة ليوجه ضرباته توجيها أدق وليصيبنا اصابة أشد · ان جنود الحصون المصفحة وجنود المدفعية الواقعين على مسافة أبعد منهم يفتحون النار فى ثانية واحدة كأنهم متأكدون مما يقع فى كل ثانية · وتقيم المدفعية حالا سدا من النار وراءنا لتضرب حاجزا بيننا وبين كل انسحـــاب · وتتبع كشافات النور الدفعة الاولى من الرصاص الخطاط المنبعثة مـــن المصفحات والمحاربين تقد الصعيد والرجال ـ وأثناء هذه اللحظات يصير الانسان غير قابض على رقابة نفسه ، تخطفنا الارض وتلفظنا وتنسحق جسومنا وترتفع على الصوت الجهنمي للموت الذى ينقض علينا · ونلقى بأنفسنا ونعيد القاءها على الصخر وعلى الشوك فى كل خطوتين ، نجرى بين الانفجارات وننغمس فى سحاب الدخان المنطلق من القنابل لنتخلص من كشافات النور والشظايا ، والفكر شارد ومعلق بصفير القذائف المتهاوية وصفير الرصاص وعند ذلك لا يعود لنا وجود ، وبعد ذلك · أى بعد ذلك بزمن طويل فى مكان أمين نتساءل : أليس الرادار هو الذى ألقانا فى اللهب ، ونعود لا نؤمـــن عند ذلك بالمصادفة وبأخطاء بعض الرفاق وبالجلبة التى كنا نستطيع أن نحدثها أو فقط بسوء الطالع · اذا خامرنا الشك بصدد وجود رادار العدو يصير حمل أيامنا أقل ثقلا علينا · وفى الحالة المعاكسة يتسلل الرادار الى داخل كل واحد منا ويحطمه على ممر الايام ، الجسم يذبل والافكار تسوء والرادار يخربنا بمقدار ما يخربنا سم بطىء قاتل ، ونفكر فى الليالى القابلة · ان المفاجأة هى السلاح الاصلح الاكثر فاعلية الذى نملكه ضد قوة العدو المخفية لو انقلبت علينا ماذا يبقى لنا كم يجب من الآلاف والآلاف من الرجال لنصمد ونصمد للسد والرادار ؟

عند امتداد خطانا نحو المنطقة المحرمة أحرم على نفسى التفكير فى جهاز الهلـــع والذعر هذا وأجتهد فى أن لا أفكر فيه حقيقة · ولكن أفكر فيه دائما · وأحس فى هذه الآونة بأن حلقى يجف فجأة ، لا أحب الاشياء الخفية ، لا أتحمل الجهل والشـــك اللذين يأسراننا بصدد الرادار ، لا ينفصل جسمى وفكرى من الوجود القذر لهـــذا العدو الخفى المصنوع من الحديد الا عندما يكون الخطر هناك · الا عندما يجب أن لا نفكر

فى شىء غير بقائنا أحياء رغم شظايا القنابل رغم نار كل السماوات التى تنصب علينا ، وبعد ذلك بعد ذلك بزمن طويل ، فى اليوم التالى تعود أفكارنا بشكل خفى الى الرادار والى اللحظات المظلمة التى يخبئها لنا · فيزيد انحناء مناكبنا قليلا وتنغلق الرادار شفاهنا أكثر وتتكدر أنظارنا بسرعة أقوى · الرادار ·

المدخنون منا يتسلمون علبتين من السجائر فى كل ثلاثة أيام · علامة : « جندى » · على وجهى العلبة العلم الجزائرى · والرفاق الذين يستنشقون السعوط يتسلمون علبتين من التبغ · والمدخنون لا يتعجلون أبدا فى تدخين سجائرهم · والتبغ الاشقر جدا غير ممتع ولا طعم له البتة · يجفف الحلق ولا يتعود عليه أحد ، ويقال ان ذلك تبغ بلغارى · ومن الرفاق من يقامرون بجرايتهم : بسجارة بعد سجارة ، ومنهم من يلعب لعبة الضامة ويرسمونها على الارض ، والمتفوقون فى هذا اللعب تجتمع لديهم ذخيرة من السجائر يتعجلون فى المبادلة بها بوساطة الممرض ويأخذون بدلها لبنا مخيضا أو بيضا وهى الثروة الوحيدة للمدنيين الذين حولنا ، ولكن هؤلاء هم أيضا لا يقدرون هذا التبغ، ومن جهة أخرى يمنحوننا بارتياح لبنا مخيضا، الحاصل انهم يهبون لنا ما أمكنهم من دون أن يحرموا أنفسهم من الشىء والمدنيون الذين يقبلون هذه السجائر يفعلون ذلك ليبينوا بصفة خاصة لاقاربهم أنهم يحظون بتقديرنا ومودتنا ·

يتسلم رفيق المؤونة حفنة من السجائر بدل كل قطعة من الكرتون يحملها الى ، وفى أيام قلائل صنعت سريرا جيدا من الكرتون الجاف لأتقى رطوبة الارض ، وهكذا تصلح سجائر « جندى » للتبادل · اذا كان أحدنا لا يدخن يجد ما يصنع بهذه الانابيب البيضاء التى تتحتت بسرعة فى الجيب · لم ينقطع سعال صديقين · وقد مزقهما السعال فى الليل حتى قريب الفجر ، فقد اقتنع بعض الرفاق بأن التبغ الاشقر هو سبب ذلك ، ولا يكفون عن التدخين ، أنا أعرف انه لا يتأكد من أنهم مرضى حتى يبصقوا دما · هذا الدم الذى لم تستطع المنطقة الحرام أن تشربه ، هذا الدم النفيس الذى ينخره ببطء التبغ البلغارى الذى يوافينا كل ثلاثة أيام ، دم المرضى . مرضى بانتظار الليل ، الليل الكبير للتخلص الى الابد من السعال ومن الزمان ·

أنهرنا حزينة ، كل واحد منا يفكر فى زاويته فى الليالى القادمة أو فى الليالى التى عاشها ـ ان طائفة منا يولوننا أظهرهم ويلصقون وجوههم بالحائط • هى طريقتهم فى الافلات من المكان الذى هم مضطجعون فيه • نحترم انزواءهم ولا يقطع أحد سفرهم • ذلك فرارنا المؤقت • أنهر كاملة تقضى فى قرارة النفس ـ وطائفة أخرى من الرفاق تنظف ساحها ، بعضنا لا يصنعون شيئا ـ غير أنهم يحلمون ووجوههم عارية وهم مضطجعون على غطائهم اللاصق بالارض الرطبة ، جزء من الارض ذاتها من شدة الالتصاق عليها طوال فصول كاملة • فى أثناء هذه الايام الحزينة ما أقل الرفاق الذين يتحدثون ، نتجنب الحديث والنقاش ، لا أشق على الانسان من اجابته عن اسئلة حول نفسه ، حول الآخرين ، حول أمس ، حول غد ، لا يسأل صديق ، لا نتساءل ، نصمت بكم مثل الجدار الذى ينظر الينا والذى نقص عليه كل شىء بالنظر والحافظة •

اذا سقط المطر صار الجو أشق والصمت أكثر مضايقة ، ننصت الى الاحلام ومواعيد الريح فى السهل • الريح ، زائر هائل ينفخنا بالامل ويلقينا وراء أنفسنا ووراء هذا المكان الكئيب بالصمت والحضور • ترد أحيانا ، فجأة الى الزمان الحاضر مثلنا مثل رجل نائم تقلعه بقساوة من نومه • قطرة ماء تسقط على العنق ، على الرأس المكشوف، السطح الذى لم يعد يمسك ماء • هذا السطح المصنوع من الطين المجفف ومن القصب الذى يتدخل فى أحلامنا ويحرم علينا الفرار من صوتنا وصوت أصدقائنا ، ستار يطيل الليل عندما يشرق ضوء النهار فى الخارج على كل بقاع الارض • يشعل أحدنا شمعة عند ذلك ويهمس المطر بنذره القاتمة ، وبالذكريات الحزينة ذكريات الرجال الذين تقدمونا هنا والذين ليسوا هنا ليحدثونا ويستمعوا الينا •

لا أتكلف أبدا بما هو عائق ، لا فائدة فيه أو ثقيل أكثر مما ينبغى قبل أن أسير الى السد ، كاسكيت ، رمانة ، اناء ماء لم تصلح لى قط ـ رب رفاق ـ بعكس ذلك ـ لا يفارقهم اناء الماء • يملأونه تماما اتقاء الجلبة التى قد يسمعها الماء وتنم عن حضورهم فى المنطقة المحظورة لان أقل حس يسمع فى الليل من بعيد • ولكنهم لا يحملون اناء الماء لاجل الماء هؤلاء الرفاق المدرعون بعتاد لا طائل فيه ، فى هذا القطاع الماء ملح لا يحتمل شربه • فهم لا يتزودون منه اذن لازالة العطش ، يصلح الماء وقاية من الدخان

عندما يبقى الرجل مسحوقا على الصعيد داخل سحابة غاز لاصقا بمجرى ماء تدكـه بطاريات مدفع ، ان سحابة الغاز والدخان المنعقدة ببطء فوق رؤوسنا تنزل بسرعة ويقل الهواء · نخرج على عجل اناء الماء نبل شاشنا به ونغطى وجهنا · يخطف الفم والعيون قطعة النسيج المبلولة الملجأ الاخير للهواء · اما أن نصنع هكذا ونتحمـل مطر القنابل أو نتعرض لكل المخاطر ونلقى بأنفسنا عبر السحابة القتالة وشظـايا القنابل والرصاص · لا أغامر بنفسى أبدا باختيار الحل الاول لا ، ليست القضيــة قضية شجاعة ، لان المخاطرات متماثلة ، الانسان اللاصق بالارض لا يجعله لصوقـه بها فى مأمن من المدافع والموت · أفضل أن أخرج نفسى من المكان الذى تلح عليه قنابل الغاز لاتقاء الاحتراق بالدخان · اذا لم نأخذ حذرنا نقضى أياما وأياما قبل أن يعود الينا تماما استعمال بصرنا وصوتنا ، ان الدخان يحرق شبكية العين ويمزق الرئة · نحذر عند ذلك الاختناق مكاننا ونفضل أن نسلم أنفسنا للمصادفة بالقاء أنفسنا عبر الانفجارات والخروج من الجحيم المعمى ·

اذا سرت الى السد لا أحمل اناء ماء ولا رمانة ولا ملقمات بندقية أكثر مما ينبغى · أعرف جيدا أننى مخطىء · ان الاهانة التى تحملتها فصيلة صديقة كانت جديرة بأن تحملنى على حذر أكثر ، لان هؤلاء الرفاق وجدوا جحرهم فارغا تماما بعد عودتهم من السد ·· وبينما كانوا يعدون فى المنطقة الحرام أخذ فدائى عدو كل ما كانوا قد تركوه فى ملجاهم : أغطية ، حقائب ظهر ، شموع ، لو لم يلق عمل معمم بكل رجال الفصيلة ضد السد لم يفلح هذا الفدائى فى عمليته ولم يعد من مغامرته كاملا ، ولكن لم نضيع شموعا فحسب ·

ان المراكز العسكرية المغربية التى كانت مشخصة لحدود المنطقة الحرام تركهـا المحتلون لها وانسحب هؤلاء الى داخل البلد فمواقعهم اذن هى ابتداء من الآن وراءنا · ولم يحتل المغاربة دائما هذه المراكز · وهذا يرتفع على حسب ظنى الى العام المـاضى فقط ، ويرى رفاقى أن الجيش المغربى يخاف هجوما من قبل العسكريين الفرنسيين ويتوقع هكذا تكوين شبه منطقة حاجزة · لو وقع هذا لوجدنا أنفسنا فى وسط جحيم وبين نارين ولاستحال علينا القيام بأى تمرينات عسكرية ·

ونتصرف الآن كما لو توقعنا أن هذا سيتحقق غدا أو هذا المساء • وصار سلاحنا لا يفارقنا لحظة • وكنا خائفين من السد والمدفعية والمعاقل المصفحة التى تواجهنا ، نعيش من الآن فى وسط دائرة من القلاع لم تكن لتخطر لنا على بال أبدا •

أخبرنا رفيق بفرار جندى من الفصيلة الثالثة وسلم نفسه ، فقد رآه المدنيون أمس صباحا واقفا فى أسفل السد بلا سلاح ، وناس الجهة المقابلة لا شك أنهم يسرون بمثل هذه المفاجأة الطيبة • لان ذلك مصدر معلومات وأخبار يحصلون عليها تنقلب علينا حالا ، ولن يبقوا جاهلين لمواقعنا وعاداتنا وخطوط سيرنا التى نأخذها فى المنطقة الحرام ••• ولابد حينئذ من تغيير واعادة كل شىء وحساب كل شىء من جديد يحدث ذلك وضعا خطرا لرفاق القطاع الذى كان يخدم فيه الجندى الهارب • سنرى بعد أيام سلاسل من المنشورات المعلنة لاسماء وأرقام مبعثرة فى المنطقة الحرام ، سيستخرج العدو من ضيفه غير الواعى كل ما فيه ضرر لنا واهانة واضعاف• كيف لم يفكر هذا الاخ الشقى فى الذهاب الى مكان آخر ؟ كيف يستطيع هكذا أن يذبحنا بكل بساطة ؟

لا عجب من أن تسحق قنبلة انسانا أو ينشره رصاص رشاش ، والموت هكذا هو نصيبنا اليومى • كل واحد منا يعرف معرفة جيدة أنه هنا لاجل ذلك • وفكرة الموت هكذا لا تكاد تلمسنا ، لان الموت على هذه الصفة هو طبيعى الى حد أن الفكر لا يطيل النظر فى هذا الموضوع — عندما نحس بالوحشة العمياء المتمثلة فى تخطيط الرشاشات للظلام بنور رصاصها حولنا وتعصف مئات القنابل المتفجرة بين السماء والارض نفهم هذه الحقيقة : نحن صائرون الى المنطقة الحرام • وهذه تنتظرنا عاجلا أو آجلا • ولكن متى ؟ وبصفة خاصة : كيف ؟ لان الامر لا ينحصر فى أن هناك رصاصا وقنابل ، هذان هما السؤالان الوحيدان اللذان يتشبث بهما كل أحد فى أعماق نفسه •

كلما سرنا الى السد طرحنا من افكارنا وقلوبنا هذه الاسئلة المستمرة • «فيما بعد» نقول هذا فى أنفسنا عندما تعتمد خطانا على هذين السؤالين ونحن فى وسط المنطقة الحرام ، مثلنا مثل أعمى يأبى أن يسلم بعماه • لا موت أبدا قبل الأوان والامر أمر المصادفة فيما يخص حياتنا • ان المصادفة هى التى تقرر فى هذه الاراضى السوداء

حيث يحاذيك الموت ويلمسك ويمسحك بنفسه ويعدك بالوفاء والحافظة ، وأملنا المشترك يكمن فى هذه الامنية البسيطة : لا نموت ببطء • أو ــ وهو دعاؤنا الاخير ــ أن يكون أحد بجانبنا فى اللحظة الاخيرة • شخص يعرفنا ويحسن المكذب حول ما يجعلنا نسلم الحياة والدم ، ولكن الانسان هو دائما وحده فى هذه اللحظة لحظة الوضوح الاخير • الانسان وحده ، دائما وحده ولو أحاط به الاصدقاء • عندما تحيط بنا نار الجحيم نتجزأ الى ومضات حياة • كل أحد منفرد ، كل أحد يحس بأنه هو الهدف الوحيد للشظايا والرصاص • الانسان دائما وحده عندما تحين اللحظة الكبرى لحظة الحقيقة ، فى الظلام نشعر بأن كل قوانا تفلت منا ، حتى الجسم نفسه يظهر منه كانه يخضع لارادة غير ارادتنا • وهذه الارادة لا نتوصل أبدا الى التعرف عليها والى تبنيها فى الاوقات الخطيرة كلها •

غارة معممة • كل وحدات جيش التحرير الوطنى المحاذية للحدود تنقض على السد والحصون المصفحة الفرنسية فى مساء واحد وساعة واحدة ، تستخدم كل فصيلة الوسائل التى تملكها أو الوسائل التى يسمح الميدان باستخدامها • هاون ، بنغالور ، مدفع استراتيجى ، وأسلحة فردية فيما يخصنا • عندما احتلت كتيبتنا جبال العصفور الواقعة فى الجنوب كنا نستخدم الهاون والبازوكة أكثر من استخدام البنغالور • أكثر الخسائر فى الارواح تقع أثناء الغارات المعممة بسبب التعجل وتعقد الزحف من دون ما ريب • فعند ذلك تلتهب الحدود كلها على طولها لان الجنود الفرنسيين يظنون أن هذه الهجومات العظيمة تخفى عبور الرجال ومرور الجنود الى داخل البلاد • فيقع فى هذه الاوقات رد فعل من قبلهم بأقسى عنف فى الظلام تاركين للمصادفة فاعلية وحشيتهم وانطماس بصيرتهم • وتلح المدفعية بشكل خاص على مدافع الهاون التى تحرم على الجنود المعادية الخروج المتسم دائما بالخطر بالنسبة الى الذين يقطعون السد •

فيما يخص الغارات المعممة اننا نشن منها ثلاثا فى الشهر على أقل تقدير ، ولكنها لا تخص دائما عبورا حقيقيا للرجال والعتاد • لا تدع للعدو أى مهلة • ولا نضع البندقية من يدنا ولا ننسى لماذا نحن هنا • ولكن هذا الخروج الضخم يترك فى حافظتنا آثارا لا تمحى • تضطرب قلوبنا من الهلع مدة طويلة بعد الغارة ، عندما تفرض الشمس

الصمت على كل الاشباح ، ولو عدنا سالمين غير مصابين بأذى • وأحيانا لا يكاد النهار ينتهى حتى نستأنف الغارة المعممة التى كنا شنناها فى اليوم الماضى •

كم من بنغالور ، كم من قنبلة ، كم من رجل محت هذه الليالى ، « معممة » أظن أن هذا اللفظ غير صالح وغير ملائم فى هذا المقام ، رأيت نادرا قواد كتيبة أو منطقة معنا فى جانبنا • رأيت على الاكثر محافظا سياسيا عندما يريد هذا الاخير ان يرفع شأن اسمه أو يؤدى ثمن عدم اكتراث ما •

لا نستطيع أن نغير على المعاقل ولا على المراكز الواقعة وراءها نهارا • فهذا أشبه بالمستحيل • ان أكثر الجيوش تدريبا لن يغامر بنفسه فى ذلك أبدا • ولو فعل لن تقوم له قائمة من بعد • وان رجلا يحاول أن يخرق صفائح التدريع الفولاذية بيده العارية ربما يفلح فى عمليته ـ أثناء النهار لا نستطيع حتى أن ننتقل خشية أن نشعر العدو بمراكزنا • فالليل وحده هو الذى يحررنا • يحررنا للهجوم على السد وعلى المدافع ، ماذا تستطيع اذن اسلحتنا الفردية ضد جدار الكابوس هذا الذى يتعهده ويقويه العسكريون الفرنسيون يوما بعد يوم ؟

ليست لنا مصفحات ، ليست لنا مدافع ذات مرمى بعيد ، ليست لنا معاقل مصفحة بالاسمنت المسلح ، لنا فقط بنادق ذات مرمى قصير • ليس عندنا شىء بالقياس الى ما عند الذين فى الجهة المقابلة • لا نملك الا أنفسنا والا هذا العناد الذى نقويه بشكل خفى من أعماق نفوسنا • مثلنا مثل ولد يعرض نفسه لضربات مجنون غضبان •

لكل منا بنطل عمل وقميص للتبديل ، نحتفظ بالابرة والخيط باهتمام بالغ لان اشواك وعثرات المنطقة الحرام تتلف النسيج بينما تمزق جلودنا • لا لباس جديد أبدا • وقد استقر فى فكر الجميع أن لباسا جديدا يحمل الموت فى طياته : موت صاحب اللباس أو موت رفيق قريب له ، ربما يكون مصدر هذا الاعتقاد أن الرفاق المدعوين للانتقال الى منطقة أخرى لهم دائما ملابس جديدة • كثير منهم ينتهى أمرهم ممزقين تمزيقا دقيقا بين خطوط السد ، الخطاط الاولى • فى فصل الشتاء نتدثر فى الداخل

بكل الثياب التى نحملها فى حقيبة الظهر ٠ ذلك ما يفرضه علينا البرد ٠ أما ما يخص عدة الاسرة فمهادنا الارض ٠ الارض الرطبة ٠

حاجباه أشقران وعيناه زرقاوان رفيقى فى الخروج فى كل الليالى ، شايب عملاق يعادل فصيلة بأكملها ، حث الخطى فى صمت كامل ، شحن ستة بنغالورات فى آن واحد محاذاة أوتاد السد اتقاء لنيران المدفعية ، كل ذلك طبيعى لديه وجد سهل ، لم أره قط وشبكة كشاف النور خاطفة له لم أره قط ثقيلا أو مضايقا ، شايب هو الذى علمنى محاذاة السد بدل الانقضاض عليه عبر منطقة الردى عند التهاب الارض تحت أقدامنا فى ضجيج القنابل الجنونى ، نخاطر ـ طبعا ـ بأنفسنا على ميادين هى خطـرة مثل التى نتقيها بسبب وجود الالغام وكمائن العدو والمكنة دائما ٠ والحاصل أن خطرا كبيرا يهددنا : لقاء وحدة صديقة قد لا تتأكد من هويتنا ٠ ولكن هذا التصرف يخلصنا كل مرة ٠ وكل مرة نتخذ من السد جنة لنا ، ولكن الوقاية التى يكفلها لنا ليست خالية من الخطر ٠ لان العدو يستطيع جيدا ـ اذا عين مكاننا ـ أن يضحى ببعض أشرطة الاسلاك الشائكة ليصيبنا ، ومن جهة أخرى اذا لم نأخذ حذرنا قد نتوغل أيضا فى شبكة الاسلاك الشائكة ونجد أنفسنا فى قفص عند طلوع النهار ٠ أدعو شايب باسمه، ويؤثر الرفاق أن يدعوه : الحاج ٠ دعوه بهذا اللقب بسبب القرع الذى اتلف شعر رأس صديقى ٠

لم ير شايب قط البحر ولا قاعة سينما ٠ ابن الجنوب ولد فى ذرى جيش التحرير الوطني الذى هو فيه عضو ذو نصيب كامل منذ خمس سنوات مضت ـ لا يعرف شايب سنه ، يصير صوته بهيما عندما يتحدث عن اخوته الصغار الذين لم يلقهم ثانية ٠ ترتقى صداقتنا الى الليلة التى قضيناها للبحث فى المنطقة الحرام عن مسدس ضيعه رفيق جديد ، ليلة كاملة حيث كل باقة عشب ، كل حجرة ، كل شبح فحص كل ذلك بالنظر وباليد معرضين لخطر الالغام وكشاف النور وطلـــوع النهار ٠ وفور رجوعنا متعبين خائبين سمعنا أن صاحب المسدس قد رجع لمجلس القيادة الذى كان مستعـدا للالتحاق به ومنذ تلك الخرجة صرنا متلازمين ٠ تعلمت معه اجادة التفكير وملازمـــة

الصمت ، علمنى شايب ادامة حياتى • وبدل ذلك أحدثه عن البحر عندما تساعدنى الالفاظ على التعبير •

يكاد كل السلاح الذى نملكه يكون مستوردا من ألمانيا ؛ مفجرات، بازوكه، هاونات، بنادق ، رشاشات ، مسدسات ـ رشاشات • لكن بعض هـذه الاخـيرة علامتها تشيكوسلوفاكية ، ترتقى هذه الاسلحة الى الحرب العالمية الثانية ، ولكن لها فاعلية خارقة للعادة • لم أر بعد الى اليوم سلاحا منها معيبا • يخيل الى أنها لم تستعمل قط قبل السد • ما من أحد يعرف بالضبط من أين تأتى ، ولا يهتم أحد بذلك • هى هناك ، لنا • والعتاد الحربى لا ينقصنا أبدا • ولكن الرفاق الـذين يستخدمـون المسدس الاوتوماتيكى قليل ، ومن الشقاوة البالغة بالنسبة الى المهمة التى هى عملنا أننا لا نكاد نفكر فى دهنه وتنظيفه من حين لآخر •

لم تكن هذه الاسلحة دائما بهذه الجودة ، ان الرفاق الاولين كانوا فى الايام الاولى يفتخرون ـ على أكثر تقدير ـ ببنادق قصيرة ـ من نوع الموسكوتون ـ أو ببنادق صيد ، متينة متانة كافية لاطلاق النار • ومن جهة أخرى لم يكن التزود من العتـاد اليقع بدون خطر كبير • وقد أقام الجيش الفرنسى هذا السد بالضبط لقطع هـذا التزود ، واليوم ، بعكس ذلك ، انظروا الى هذه الاسلحة • هى متينة وحديـثة ، وأخيرا لم نكن فى حاجة الى انتزاعها من أيدى العدو كما اضطر الى فعل ذلك رفاقنا السابقون • وهذه الاسلحة هى هنا •

ماذا يقى لنا لولا شجاعة تجاهل الدبابات والطائرات التى لا نملكها • وبشكـل خاص : العدد ، ومما لا غنى عنه العدد الكبير من الاصدقاء الجدد لنقاوم السـد فى وضح النهار ، فى النور الساطع •

يحتفظ بعض قواد وحدات باهتمام بالغ بأسلحتهم : بقربينات أمريكية أو ببنادق أنكليزية • ولا تمتاز هذه الاسلحة بشىء عن أسلحتنا • ولكن تشهد فقط بأقدميـة ملاكها ولا سيما ببسالتهم القديمة ، نحسدهم أحيانا •

يجذبنا وضح النهار الى الخارج ، نمد سوقنا ونضع غطاء رأسنا على اعيننا ونبقى طويلا معرضين للشمس وظهرنا للحائط • يغمرنا نصب عذب شيئا فشيئا وتسترخى أعصابنا بقدر ما تميل الشمس الى المغيب • أشياء خرساء ، كتلة أعصاب جامـــدة • وبعد شفاء غليلنا من نور الشمس نحاول القيام فلا تكاد أرجلنا تمتثل • ترتجف وكأنها خلت من دربة السير وملكة التوازن ، وتمسكنا بالارض الشمس الضخمـــة المغشاة بها شبكية أعيننا وتورثنا الدوخة•• ولا تعرب حياتنا عـــن وجودها الا فى الليل ، ونبقى فى النهار مختفين مقبورين اتقاء لكل الانظار والعدو الذى يلاحظنا ، وهكذا يصير وضح النهار أكثر اختراقا لنا وأقوى من أن نستطيع أن نعب منه الشىء الكثير دون أن ينحرف منه مزاجنا • وحتى اختلاج العينين يصير مؤلما لنا بعد التزود من النور مهما كان ضعيفا • استحمام صامت بالنور بدون اشارة ، بدون تصويت • يعتمد الرأس على الكتف أو على الصدر وتنغلق العينان ببطء كما ينغلق نبات ثانية فى ظلام الليل ، ترطب الشمس قليلا حافظتنا وتنقص ليالينا من سمها وغياهبها •

أثناء هذه الآونة لا نقص قصصنا على أنفسنا • بل ربما نقص • نتناول من جديد خير حوادث الاشهر الملتصبة وشرها مختلطة فى دفعة واحدة •

لقاءات جديدة سرية لنا مع أنفسنا ومع عشائرنا • انفلات الى من فارقناهم بدون ما وداع أو مواعيد • ألفاظ مخيفة وموجعة تحاشيناها تعود يوم ذاك الى السطـــح حتى أطراف الشفاه والفؤاد ، نقوم فجأة عندما تحرقنا رؤيـــا أو وجه من أيامنـــا السعيدة ، يبتعد الصديق بخطى شاسعة بعد احتراقه بذكرى الساعات القديمة ، يذهب بعيدا بعيدا ليخفى دموعه التى لا يسعه كشفها • ثم يرجع من ذلك الى ساعات الوقت الحاضر ، الى الساعات القاتمة وآونة أيامنا الراهنة • يعود من ذلك الى ليالينا والى ما تنذرنا به : البنغالور ، الالغام ، الموت فور اصطدام بشظية قنبلة أو ارتطـام فى أعماق مسيل ماء••

غذاء ، حراسة ، ليلة ، سد ، حارس ، كلمة السر ـ السد ـ هذا هو حديثنا ، هذه هى قصصنا ، هذا هو حوارنا ، مبادلاتنا وعالمنا • هى عين الالفاظ المألوفة التى تعود وتحدد جيدا الى أى مدى نستطيع أن نتقدم فى مناقشاتنا ، أحيانا فى الصباح ،

ألفاظ سعيدة لا صلة لها بالمكان والزمان ، ألفاظ تحسن الى القلب وتدفئه ٠ ومنشأ هذا بدون ما ريب هو أن وجود السد والالغام والمدفعية يكاد يكون جزءا منا ٠

والالفاظ المنتزعة من صدورنا تؤدى جيدا الحضور فى مكان لهذه الآونة المشؤومة التى نتحملها كل ليلة ، كل شىء لا يخص المدفعية والمنطقة الحرام لا يبقى طويلا متصلا بأفكارنا وانتباهنا ٠ مع هذا نحن الذين هنا متطوعون جميعا ، نحن رجال اختاروا هذا الطريق بحرية ، نحن أردنا هذه الآونة وهذه الحياة ، وهبنا أنفسنا للمنطقة المحرمة ، للسد ، لهذه الليالى التى تشوهنا والتى تدفننا فى هذه الالغام العديمة الشكل ؟ ألزام أن نقول ان هذه القذارة المخدرة الضعيفة هى أقوى من ارادتنا للخروج منها ؟ ألزام أن نعتقد أننا عاجزون أمام هذا الصمت الذى يسحقنا ويقيدنا ؟

يلقى العسكريون الفرنسيون كثيرا فى المنطقة الحرام منشورات لها أبعاد ورقة من كراس مكتوبة بالعربية أو بالفرنسية ، تأتينا هذه المنشورات بـ «صوت فرنسا» ، وهنا البلد يعدنا فيها بـ « عفو » ٥ ويقول رجال الجهة المقابلة : « سلموا أنفسكم » ، تصف هذه المنشورات الحياة الهادئة التى يمكن أن نعيشها عند أهلنا ، لن نحرم من السلم والهدوء لو احتذينا حذو طائفة من رفاقنا الذين ـ فى نظر العدو ـ لم يترددوا فى الالتحاق برجال المعاقل والمدافع ، تذكر بعض المنشورات أسماء وتعرض صورا شمسية وتذكر الاماكن التى يقيم فيها طائفة من الرفاق ، وتروى أوراق أخرى كلام المواطنين الذين يخدمون العدو ٠ يقص علينا هؤلاء ، اعتمادا على تفاصيل شتى يذكرونها ، الحياة السعيدة التى يعيشونها تحت الراية الفرنسية ، وآخرون أيضا يتعجبون مما يسمونه « حمقـ » نا ، و « عدم ادراكـ » نا ، وأولئك يرجوننا أن ننقاد للحق ونذعن للصواب ، أو بالاحرى ، ننقاد لحقهم ٠ الحاصل أن كل المنشورات تطلب الينا أن نسلم أنفسنا فى أى مكان من السد نجد أنفسنا فيه ، بلا ابطاء ٠ عدالة فرنسا ٠٠٠ صوت فرنسا ٠٠٠ اذا كنا لا نهتم بهذه المناشير ذلك لاننا نعرف بالضبط جيدا ماذا يحدث لا لنا نحن ولكن للاخوان الذين نتركهم وراءنا ٠ نعرف أكثر من الكثير الحياة التعيسة التي يعيشها السكان المحاصرون المسيج حولهم داخل البلاد ٠ نحن لا نجهل القصد الحقيقي للعسكريين الفرنسيين : معرفة مراكزنا بتدقيق ، معرفة

عدد قوانا المسلحة ، مناهجنا فى الازعاج والارهاق · الحاصل معرفة : كيف نتوصل الى الصمود والى البقاء ، أكثر عنادا من أى وقت مضى ، فعند ذلك ندوس هذه المناشير بالاقدام · ولا نذكرها حتى بلساننا · ولا تخلو أبدا من لفظة أو تفصيل فيه شتم ، ويجعلوننى أشعر بأنهم يظنون أننا بدائيون غير صالحين للتأثر بالحضارة ـ حضارتهم طبعا ـ ولكن تغرينا مناشير أحيانا بأن نبغض بغضا شديدا هؤلاء الاخوان الـذين يحاربوننا بالسلاح ، نحن نعرف أنهم كثير وأنهم يخدمون تقريبا فى كل مكان من البلاد وأنهم قساة بله ، يقبلون ظهر المجن لاهلهم واخوتهم ، ولا يترددون أبدا فى أن يفتكوا بهم أفظع الفتك وأخزاه · فهم الذين نلقاهم من جديد فى الخطوط الاولى واصبعهم على الزناد ، وهم الذين يسلبون ويخربون ويتعدون على الحرمات فى أغلب الاحيان بمرأى من أولياء الامر المتسامحين معهم المشاركين لهم فى الجناية · وهؤلاء الذين تعودوا الاجرام بحكم مهنتهم لا يتدخلون أبدا · كلاب صيد يرسلها ربها بين يديه ، والحركيون لا يدركون أى جريمة يرتكبون حين ينصبون لنا العداء · لا يدركون أنهم يقتلـون الشعب ، شعبهم لقاء المال · لا يدركون ، ان السكان يخشونهم ويفـرون منهـم ، والمجندون قهرا ـ بعكس ذلك ـ ان لم تجرهم وتدربهم وحشية هؤلاء البهائم الخالين من الذاكرة وان لم يكونوا متوحشين مثل جنود الفرقة الاجنبية ، انهم ـ رغم ذلك ـ ليسوا براء ينظرون ويصمتون ، شهود بكم ·

اذن لسنا ـ فى نظر العسكريين الفرنسيين ـ الا قطيعا من البهائم أضلنا رعـاة أشرار ، غير مسؤولين سلم لهم لصوص سلاحا يغيرون به ـ من دون وعى منهم ـ على أصدقائهم فى كل زمان ، على حماتهم أى فرنسيى فرنسا التى نلقاها فى كل الاراضى التى لا تملكها ـ هم يتعجبون من أن نبقى طويلا قبل أن نذعن لـ « حكمة » الاخوان الذين سبقونا الى التشرف بخدمة فرنسا ، الى حكمة المسلمين الفرنسيين ، طبقـة الاغنياء الذين يخشون أن يضيعوا ثروتهم ـ طبعا ـ لا تذكر المناشير أبدا ما هى الحياة التى يعيشها مواطنونا فى الارياف · ولا تصف أبدا ماذا يحدث للشباب فى المدن ، لا · لا شىء من كل هذا ، يصمتون عن تعاسة السكان وعن الاضطهاد الذى يعيشون فيه · لا يدرى العسكريون الفرنسيون أنه ـ منذ عين اليوم الذى اختارت فيه طائفة

من الشعب حل السلاح قد تقرر كل شيء ، ويصرون على الاعتقاد بأن القوة تنتصر على الحكمـــــة ·

لا نلتقط المناشير عادة لانها تستخدم كثيرا كمفجرات لفخاخ ملغومة · هي رسائل موت غالبا ، « هم » يزرعون ألغاما على الصعيد ويلقون عليها مناشير · هاهي ذي دوامة قد نصبت ، وويل لمن ينقاد لفضوله ·

اجتماع الكتيبة كلها في دار كبيرة تحت الارض ، قد حاذينا المنطقة الحرام مدة طويلة قبل أن نصل اليها حوالى طلوع الفجر متوشحين بسلاحنا · تركت حقائبنا في مقر الفصيلة كما ترك فيها العتاد الحربي تحت حراسة طباخنا ، طلع علينا النهار ونحن مختلطون بعضنا ببعض ومتعجبون وقلقون من أجل هذا الاجتماع المفاجيء ، والذين منا من كانوا حاملين معهم أقداحهم أخذوا حظا من القهوة ، أما الآخرون فقد تعلمـوا كيف ينبغي أن لا يتخلوا عن شيء قد يأتي بعائدة ـ وحوالى التاسعة ـ جمع رؤسـاء الفصائل رجالهم صفوفا اثنان في كل صف ، وفتش قائد الكتيبة كـــل الاخـوان الحاضرين ·

رجال منهارون متهدمون قذرون · ويظهر عليهم ـ ولو كانوا واقفين ـ انهم لـم يعرفوا قط متعة الضحك والكلام والرؤية ، والاسلحة ما كان أثقل عبأها · ولكـن الانتظار لم يطل أكثر مما ينبغي ، وقبل الساعة الثانية عشرة بكثير وصل رجل بدين يتقدمه بعض المسؤولين من المنطقة كنا قد رأيناهم من قبل بدون وضوح ، وكان الرجل لابسا لباسا جديدا وكان يحمل على ذراعه جلابة ، وقع أداء تحية الشرف ثم صمت ـ خطاب ـ تحدث الرجل عنا ، عن البلاد ، عن الحرب · وتحدث طبعا عن المستقبل ، خبر سار ، ان مفاوضات مع فرنسا كانت جارية · وقال لنا : ـ مفاوضات ـ وكان للفظ أثر يثير الفضول لدى كل الاصدقاء ، فقد رفعوا فجأة رؤوسهم وأنظارهم ·

قد انقضت عشية هذا اليوم انقضاء أسرع مما ينبغي في نظرنا ، طغـــت علينا بسرعة موجة الاذواق والرغبة في السؤال عن أخبار الاصدقاء البعيدين ، الرغبة في الحديث فقط · مداولات ـ وفي المساء خضنا في طريق الرجوع بلا طعام ـ سير طويل ،

نعم • ولكن بلا بنغالور ولا سد ولا مدفعية • أنا ذاكر اجتماعا آخر مماثلا لهذا ، على أعالي جبل العصفور ، زارنا رئيس مجلس القيادة العامة العقيد بومدين ، رجل يجعلك تشعر أنه لم يغب البنغالور قط عن ذهنه ، جندى بقى قرنا فى أسفل سد ما مماثل لسدنا وقد قرر أن يجابه كل السدود على الكرة الارضية وعلى كتفه ملايين من البنغالورات • وكان هذا كلامه قصيرا مدة ذكرنا فيها بأن رفاقا كانوا يسقطون فى الداخل برصاص فرنسى ، مدة القاء واجبنا على وجوهنا : تدمير كل الاسلاك الشائكة ، كل الحواجز التى تفصل بيننا وبين أصدقائنا البعيدين الذين ينتظرون الاسعاف ، ينتظرون العتاد الحربى ، ينتظرون العلاج ، ينتظروننا •

نفكر كثيرا فى الرفاق الذين وراء السد فى داخل البلاد ، نعرف الحياة التى يتكبدونها والجبال التى تؤويهم ، نحسدهم ، هم لا يعرفون ـ على أقل تقدير ـ أين ومتى يموتون ، طبعا ، نستحيى من أننا لا نستطيع أن نمدهم بأى معونة ، هم الذين يعتمدون علينا لنزودهم بالعتاد وبشكل خاص لنؤيدهم بالرجال ، لنتمالك ـ على أكثر تقدير ـ وتجاهنا هؤلاء الحشود من عسكريين من كل نمط ، ان لم نركز هؤلاء على طول السد يخربوا البلاد • وقليل الاصدقاء المسلحون الذين يفلتون منهم ، واننا هنا كالبهائم ، نمشى كل ليلة على الرشاشات الفرنسية بتصلب بهيمة • ونموت فى الصمت حين لا اعانة لاحد فى هذا الموت ـ حياة منسوفة ـ •

ليست المسألة الآن ـ بالنسبة الينا ـ قطع السد فى كثرة بعنف • لم تقع ـ منذ شهور ـ أى محاولة للعبور • كلفنا العبور الاخير أربعين ضحية من الرفاق تقريبا ، هلكوا كلهم ، بين خطوط السد الاولى ممزقين بالالغام أو محطمين بالقنابل كانوا موقرين بعتاد الحرب ومحملين بأكثر مما يستطيعون حمله من الاسلحة ، كانت الرشاشات المعادية تطلق النار عن قرب • وقع ذلك فى العصفور ، والرفاق الذين نجوا من الموت فى المعركة واستبعدوا بسبب طلوع النهار حاولوا عبثا استئناف العملية فى الليلة التالية • نكبة ، رجال مكسوون بملابس جديدة هلكوا رميا بالرصاص من غير أن يستطيعوا تقديم أى معاونة للذين كانوا يريدون اعانتهم

ــ أصدقاء الداخل ــ وقد فهم العدو ومنذ ذلك الوقت أننا كنا قادرين على أن نتجاوز كل تكهناته ، قوى السد فى هذا القطاع ، وأتى بعدد أكثر مـــن المدافع والدبابات والرشاشات ــ أثناء النهار خلاطات الاسمنت تصب هذه المادة ــ معاقل ومحارس جديدة للدفاع عن السد دفاعا أجود ٠

لم يكن رفاقنا فى منطقة الجنوب أحسن حظا منا ٠ ترتقى محاولتهم الاخيرة للعبور الى عين الوقت تقريبا ٠ فى قطاعهم أسوأ عدو لهم هى الطائرة التى لا تبتعد أبدا من الحدود ٠ ولا يبقى لهم الا أن ينصبوا فخاخا للدوريات ويشنوا غارات سريعة ــ الحين بعد الحين ــ على التحصينات الصغيرة المتقدمة ٠

حاولت كتيبة صديقة ــ قبل عام ــ أن تحفر نفقا تحت السد ابتداء من المنطقة المحرمة ٠ ولكن العدو اكتشفه ٠

له حمار لتنقلاته ومزادة لحمل أدواته الـــتى يستخدمها : مقص ومجز ومشـــط ــ والحلاق ــ فى كل كتيبة حلاق واحد ــ هو أكثر الرجال الزائرين لنا تدربا ٠ ولا اعتقد أن له صديقا فى العالم ٠ جاوز الاربعين ؛ له قامة قزم وعينان جاحظتان، يتحدث بلا انقطاع عن أى شيء ، اذا أخبر الحارس باقترابه نخفى بسرعة القهوة والسجائر والكرتونات ٠ الحاصل كل ما من شأنه أن يغريه ، ولكن كل شيء يغريه ، نحرص اذن اما على أن نختفى فى مخبا ما بعيد ، واما على أن نتناوم ــ يستعطى كل شيء ولا سيما الثرثرة ٠ لا يعفى أحدا منا من ألفاظه وصوته واشاراته ، يحدث ، يتحدث بلا انقطاع وأتساءل هل هذا شيء طبيعى ؟ أليس هذا رجلا مريضا ؟ لان الشيء الحيوى بالنسبة اليه هو أن يتحدث وأن يسمع الى أى حديث كان من أى محدث كان فى أى وقت كان، ويبقى معنا المدة الكافية ليتزود بالالفاظ ، ويذهب الى فصيلة أخرى ، ولا يركب حماره وهذا يتقدمه دائما فى الطرق الملتوية التى تحاذى المنطقة الحرام ، صديقان ... من بعيد نرى الرجل يومىء يحادث حتى حماره ، كم مرة رأيناه ، رفيقان ٠

ضابط الارتباط ــ رفيق الرفاق الآخرين ــ يستعمل لنقل الرسائل ، أخبـــرنا بوجود مدفع غريب فى مقر الكتيبة ، يدعى أنه لم يره قط من قبل وسمع القول بأن

المدفع صينى لا يرجع إلى الوراء • ليس ضخما جدا ، على رجل ذات ثلاث قوائم • نعيش منتظرين لاخبار أدق ، لان الخبر خطير جدا • نأمل أن هذا الموضوع يعنى فقط سلاحا للتجربة لا تجهيزا جديدا ، وقد يكون الامر من الاهمية بمكان ، مدفع • ولا نجهل أن تكوين رجال المدفعية يجرى فى قاعدة خلفية ، وأن عددهم كثير • وأن ذخائرنا بعيدة جدا من الحدود • كيف لا نخاف اليوم الذى تصير فيه هذه المدافع فى متناول يدنا • مدافع ثقيلة تساوى فى القوة مدافع القوم الذين تجاهنا ، اذا نزل هؤلاء المدفعيون الشباب بيننا علمنا بسرعة أن اليوم الخطير قد حل • ستهجم الدبابات المعادية وسنكون ، نحن بالضرورة ، أمام مدافعنا للدفاع عنهم •

الحراسة بعد وسط الليل وبعد السد جد متعبة ، ولا سيما فى الصيف ، الاعصاب تسترخى بسرعة بالغة ، قبل تباشير الفجر بقليل تغمر أشعة الشمس الحارس وتلقيه فى بئر بلا قعر ، تحطمه مهما فعل هذا الاخير لابقاء عينيه متفتحتين ، يتدلى الرأس على الصدر أو على الكتف ويسيل اللعاب على الذقن ، ويسقط السلاح ببطء من اليدين•

نحن سبعة نضطلع بالحراسة ، وغيرنا ـ رؤساء فرق أو فصائل ـ معفون منها •

فى الاسبوع الماضى أطلق حارس فى مركز الكتيبة النار على رفاق كانوا قد خرجوا للقيام بدوريات ، والمطر ينزل والريح تعصف • ومرد الامر أن كلمة السر قد نسيت ، ومن حسن الحظ أن الخوف كان أكثر من الضرر • وضحكنا مرة أخرى ، ولابد ممن الاعتقاد أيضا بأن بعض المسؤولين يتنازلون أحيانا لاى رغبة فى اسم أو لفظ • بينما يقتضى الامر أن نكون واقعيين ، اسماء مدن جزائرية ، أسماء رفاق ، ولكن أحيانا أيضا اسماء غريبة • من هنا الحادث •

أعود الى الحراسة • نتخاصم بلطف على الدور الاول اذا كان القلب راغبا فى النقاش • وهى أسهل حراسة فى التحمل • وتمكننا من أن ننام طويلا من بعد اذا لم يكن السد فى البرنامج واذا كان الرفاق الذين ينهضون لنوبتهم فى الحراسة محافظين على السد ولا يحدثون جلبة كثيرة ، الحراسة الاولى ، من لا يخاصم عليها ؟

ليست الليلة شديدة الظلام فى ذلك الوقت ، نستطيع حتى أن نغامر بتدخين

سجارة فى أنبوب سلاحنا ومؤخرة البندقية مفتوحة لاخفاء النار · ونحلم ان استطعنا أن نحلم · لتزجية الوقت، نحسب الكواكب على ممر الثوانى والدقائق بمقدار ظهورها فى السماء اثنان ، ثلاثة ، ستة ، وعن قريب عشرة · وبعد ثوان تظهر خمسة عشر كوكبا ثم تظلم السماء وتكثر الكواكب ، تكشفها غياهب الليل ولا نعود نستطيع عدها · ونصير أثرياء أكثر مما ينبغى · فعند ذلك نختار الدرارى منها وهى أجملها · ثم نفكر فى جميع من نحبهم والذين لم نلقهم منذ دهر · وهذه الذكرى تـرد الى الواقع والى الارض السوداء التى ترتسم أمامنا ملأى بالريح والهيجان القابل · نحرس ، ونحترس من أن نضل فى تبعية السماء ، والنفس لا تكاد تتحمل هذا التخلص فى غسق الليل · ويتحول النظر الى الجبال التى تواجهنا ، المحارس والبروق المتوهجة اللامعة من القنابل والجحيم المنصب على رفاق آخرين يجرون فى المنطقة الحرام · الحراسة ، لعل ذلك هو الوقت الوحيد الذى نفهم فيه قليلا سر السد ·

الاوامر بالغارة تنهل كالمطر بلا توقف · ومن قبل كنا نستريح ليلة من ثلاث ، من أربع · من الآن فصاعدا يجب أن نذهب الى السد كلما أظلم الليل ، ساعات الهجوم وحدها تختلف · نخرق المنطقة الحرام فور مغيب الشمس أو عند تباشير الصباح · نغتنم دائما فرصة المفاجأة · نضايق من فى الجهة المقابلة ولا ندع لهم أى مهلة · لو كان ذلك سهلا هكذا كما يظن فى الايـام الاولى · والفصائل الاخرى التى تشاطرنا قطاعنا أيضا يظهر منها انها تتشبث بالسد باستمرار ونحن أيضا لا نكاد نعرف أى مهلة · تلتهب الجبهة أحيانا فور انتشار الظلام ولا تخمد نيرانها الا عندما يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر · والغارات المعممة التى كانت من قبل كثيرة الوقوع هى اليوم يومية · كم مرة نجد فى الملجأ ذخـيرة جديدة من البنغالورات بينما تسلمت الذخيرة السابقة بالامس ·

كم مرة فى الليلة الواحدة نشعر أنه لا فائدة فى القاء أنفسنا على الصعيد اتقاء لنشر الشظايا والرصاص لنا وأنه لا فائدة فى التحيل والتحذر واطالة الحياة ·

توزع المدفعية الفرنسية الموت طوال الليل كأنها ماكينة ليست فى حاجة الى أذرع الرجال · وضعت هاونات ثقيلة وراء كل معقل على مقربة من خطوط الاسلاك الشائكة ،

وعلى مقربة منا ومن المصفحات فى عدد أكبر تنهال قذائفها على السد بلا انقطاع • ولم يعد محتلوها يختفون داخل كتلة الفولاذ • بل يسهمون حقا فى غارة زملائهم من المراكز الاخرى • ويستخدمون أيضا كل أسلحتهم : مدافع ، رشاشات ثقيلـة ، مسدسات رشاشة ذوات سدنة • وقاذفات رمان عسكريى المراكز الاخرى لا تستريح هى أيضا • تتحطم ـ منذ حين ـ قنابل فى المنطقة الحرام آتية من عدة عشرات من الكيلومترات منطلقة من داخـل البـلاد • ويغلب على ظنى أن بحارة استخدموا مدافع ركزوها فى الشواطىء تعزيزا لقوتهم ومضاعفة لعنفهم وحقدهم • وتدقيقهم مخيف ، يخيل الينا أحيانا أننا نجتذب كالمغناطيس كتل النحاس هذه المحشوة بالموت السريع •

ثم كيف السبيل الى الاعتقاد بأن الموت قد يكون أيضا صعب الاحتمال مثل مـا نتحمل كل ليلة ؟ لا يظهر لنا الموت أكثر ترويعا • ويجعلنا التعب نتمناه فى كل وقت . وهو هنا الآن يكاد يكون محققا • ويجب أن نهجم على السد مرارا وتكرارا وفى كـل لحظة من لحظات الليل • ويجب أن نضايق المعاقل والمحارس بأسلحتنا التى هى أشبه بالتبن • وبأجسـام مـدمرة بالتعب والغضب وهـى أجسامنا • يجب أن يستهلك العسكريون الفرنسيون كل ليلة ذخيرة العتاد التى يتسلمونها كل صباح بصبها علينا . يجب أن تطلق مدافع الجهة المقابلة علينا أكبر عدد ممكن من القنابل كل ليلة • يجب أن نصيب الحد الاقصى من عدد الجنود الفرنسيين للتخفيض من حدتهم وتقليل ادعائهم ونقص عددهم • ولكن فصيلتنا لا تكفى ، يجب أن تكون ضخامة غاراتها أشد وفاعليتها أقوى ومخاطراتها أكثر ، حتى ولو أردنا أن نحتال لاتقاء المجازر التى تمزقنا لمـا استطعنا • فنحن مضطرون بحكم قوة قاهرة الى شجاعة أكثر والى جـرأة أقـوى • لا نستطيع أن نغس ـ لا نستطيع أن نفجر البنغالور بعيدا عن السد ، لان الناس الذين فى الجهة المقابلة قد يفهمون حالا أننا صرنا أنذالا أخساء ، وأننا ليس لنا جرأة عـلى اصابة السد وأنهم ـ هكذا ـ يستطيعون أن يقدموا قليلا مراكزهم • وقد يأتـون الى هنا ـ فى قلب المنطقة الحرام ـ لنصب فخاخ أخرى لاختبارنا وجس نبضنا وسـر أفكارنا • ولوضع محارس أخرى لاصابتنا اصابة أشد • لا • لا نستطيع أن نخفض من عنادنا وبسالتنا • قد يكون ذلك منا ـ لو وقع ـ سعيا الى حتفنا بظلفنا ، الى هزيمتنا •

ومهما يقل عنا ومهما كان الحكم على حياه الجنون والقسوة هذه يجب علينا أن نـذهب الى أبعد مما نستطيع ، الى أن نتجاوز أنفسنا لنحتفظ بهذا التوازن غير الثابت • فقد رفع هذا التوازن كل الرفاق الذين سقطوا بدمائهم ودموعهم توازن القوة والشجاعة •

كل المحافظين السياسيين الذين أعرفهم يتحدثون بصوت منخفض ويشكلون طبقة خاصة ولهم امتيازات يحسدهم عليها رؤساء الوحدات • لهم أن يلبسوا جلابتهم فى كل وقت ويذهبون الى حيث يشاءون • ويذهبون غالبا لزيارة الاسر القريبة من الحدود . وفى الليل لا شىء يوجب عليهم أن يكونوا معنا فى السد • يزورونا متى سمحوا بذلك فى آخر النهار • وليس للمحافظين السياسيين سلاح حقيقى الا مسدس يتقلدونه علانية.

ان المحافظ السياسى فى حال عمله يثير دائما الاهتمام ، حتى الجو الذى يخلقه هو مؤثر • نبقى الساعات الطوال جالسين حوله فى شكل دائرة وتضىء علينا شمعـــة أو شمعتان • والمحافظ السياسى يتحدث • التاريخ، يحدثنا عن الرومان وعن الاتراك • يتحدث عن المستقبل الذى يعرفه جيدا ولا ينسى أبدا أن يستشهد فى حديثه بالقرآن الكريم • ان الله ــ هكذا ــ يؤيدنا دائما • ان الله يحب المقسطين • ان الله يحـــب الابطال • شىء من الجغرافية أحيانا • وهكذا يقوم المحافظ السياسى بعمله ويبعـث فينا الشعور الوطنى • ولا تثار أبدا المناقشات حول السد ولا حول المدفعية •

الليالى الممطرة مفزعة ، اذا فاجأنا المطر فى المنطقة المحرمة تحتت فى دوى الامطـار المنهلة فتات الشجاعة الذى جمعناه قبل الخروج وتثقل خطانا ، فى أسفل السد يجن القلب ، يلقينا كشاف النور على صدورنا نحو الامام لاصقين بالصعيد المتوحل ويزيد الرعد فى هول الموقف • وقد يجن بعض الاخوان بسرعة فى مثل هذه الظروف ــ أخذ رفيق ذات ليلة فجأة يصرخ ويطلق النار فى آن واحد وهو واقف فى الظلام ــ واضطررنا الى الرجوع الى عين المكان وفى عين الليلة قبل الفجر بقليل لتفجير البنغالور الـــذى تـــرك مكانه •

يملأ المطر المنطقة المحرمة بعدد وافر من الاصوات والاشباح المطلسمة وينشأ عالم غريب من ضباب الليل وصخب الامطار ، والفزع الذى يستولى علينا يقصى الى أعماق

أفكارنا الاحتراس البسيط ، وليس عجيبا أن نجد أنفسنا فجأة فى أسفل دبابة مختفية بكتلتها الفظيعة داخل السد • والقليل الذى نحتفظ به من قلوبنا يجعلنا نضع ركبتنا على الارض وننتظر ، ننتظر أن تواصل الدبابة دوريتها فى مكان أبعد أو تلتحق بمركزها ، ملفوفة فى جلبة، المغارة التى نعرفها عنها، اذا أوقد لسوء الحظ سدنة الدبابة المصابيح الدقيقة التى تهديهم الى الطريق عند وجودنا على خطوات فقط لا نجد أى قوة حتى للدعاء •

والرفاق الذين يحاولون أن ينسحبوا لا يؤدى عملهم ذلك الا للكشف عن وجود الاصدقاء • يعرضوننا هكذا لرشاشات الدبابة التى تطلق علينا النار عن كثب ، يجب اذن أن ننتظر فى السكون الاكمل فى صبارة المطر وركبنا على الوحل ، وفور انفجار البنغالور تنصب علينا مئات القنابل فى شكل غير معقول وتردنا الى الحياة • ويجد الجسم من جديد بسرعة كبيرة الوقت الحاضر وتلك هى اللحظات الوحيدة التى لا نهتم بشظايا القنابل وبالرصاص • اختار أن أكون هدفا لاى سلاح على أن أكون ضحية للانتظار عندما تكون دبابة جد قريبة •

تطلع علينا الشمس فى الصباح ونحن فى الخارج بنجوة من أنظار من فى الجهة المقابلة وثيابنا منشورة أمامنا ملأى بالوحل والهلع • الخوف ، المطر • الليل ، الزوبعة تلوينا مهما فعلنا • لو استطعنا لاجل عملنا أن نستعيض عن الليل بضوء النهار •

كل الوسائل حسنة لاتقاء القنابل والرشاشات • لم نعد نتوجه الى السد من أقصر طريق ، نحاذى المنطقة المحرمة حتى أقرب مركز مغربى قبل أن ننقض على خط مستقيم على خطوط الاسلاك الشائكة ثم نرجع أدراجنا على عين الخط بسرعة متزايدة أكثر فأكثر لان الجهل بالميدان جعلنا نبطىء فى المرار الاولى ، ويطلق عسكريو المعاقل النار على الظلام وعلى الاشباح والاشواك وتتبع المدفعية الحركة دون أن تشعر أن مئات القنابل المنصبة لا تشق الا الهواء والدخان ، الفراغ ، ان القنابل المضيئة والرصاص الخطاط للرشاشات تظهر منظرا ملونا لا ينسى ننظر اليه مرة أخرى من أوله الى آخره ، والنظر ثابت لان المركز المغربى الذى غادره محتلوه يمكننا من الاستراحة قليلا قبل أن نلتحق بفصيلتنا •

نستطيع ـ مع شيء من الحظ ـ أن نتصرف هكذا مدة لا بأس بطولها اذا كنا لا نشعر العدو بهذه التاكتيك الجديدة ، اذا كنا نحتمي جيدا من ايقاظ شكوكه ٠

هذه فكرة شايب وأنا أراها مؤثرة ، وبديهي أن رئيس فصيلتنا لا يعلم من ذلك شيئا ويغلب على الظن أنه لن يعلم ذلك أبدا ٠

نهار كامل ، ستة رفاق جدد ، وكلهم متخرجون من مركز التدريب العسكري في كبداني ، قاعدة واقعة في الريف المغربي ، وصلوا الينا قبل الفجر بقليل بعد سرى طويل ٠ فأنا أفهم لماذا لم ينطقوا ببنت شفة حتى المساء ٠ وكانوا جد متعبين ، بعضهم من بلاد القبائل وبعضهم الآخر من ولاية قسنطينة ، وكلهم التحقوا بجبهة التحرير الوطني انطلاقا من فرنسا ٠ بعد تناول القهوة أخبرونا أن كتيبتنا استقبلت منذ قليل مددا عدده ثلاثون رفيقا وأن كل واحد من القطاعات الاخرى استقبل منهم أقل من هذا العدد بقليل في عين الليلة ، وقد انفعلنا من الاخبار التي وافونا بها ، من كل الاخبار ، يظهر ان الدم يسيل في داخل البلاد ٠ مواطنونا في المدن الكبيرة يتعرفون بدورهم على الزنزانة وعلى الحقد وعلى الموت الذي يصبه عليهم العسكريون ٠ ان البلاد القبائلية وجبال الاوراس وجنوب الصحراء هي وحدها التي ما تزال تؤوي رفاق جيش التحرير الوطني ، ولكن هذا ـ كما فاه به أصدقاؤنا الجدد ـ يقوله الجنود الفرنسيون وأولياء أمرهم ٠ أما سكان الارياف فانهم محاصرون ومسيج عليهم في أماكن تحت المراقبة والتفتيش المتواصل ، وعلمنا أيضا أن اخواننا في المقاومة الذين ينقضون على السد الآخر السد الشرقي هم في عين الوضع الذي نحن فيه : بنغالور ، منطقة محرمة ، مدفعية ، تضحيات يومية ٠

قال لي شاب من عزازقة انه سعيد بوجوده بيننا وأنه لا يتأسف على أصدقائه الذين غادرهم في فرنسا حيث كان يعمل في معمل ميكانيك ٠ ويبدو أن اقامته في كبداني أثرت فيه تأثيرا عميقا ؛ نظام حديدي ٠ مسيرات لا تنتهي ٠ حامي ٠ هذا هو اسم هذا الرفيق في الايام القابلة أو بالاحرى رفيق الليالي المستقبلة ، ومن بين الجدد رفيق يتوقع أن يعبر الى داخل البلاد في عين المساء الذي وصل فيه ٠ ايدير نافع

متفائل • قد ظنّ ذلك الرفيق أنه أحسن عملا عندما مزق ورمى رسائل وصورا شمسية عائلية كان محتفظا بها ـ خوفا من افشاء أسرار أهله ـ •

أفكر فى الليالى التى تحل ، وأتمنى أن لن يخرج واحد من هؤلاء الرفاق الحديثى العهد الجدد الى السد قبل أيام ، قبل الوقت الكافى للشرح والبيان لهم ، هذا الوقت الذى يجب أن يعيشوه •

طلبت متى رسالة مع أسلحة وأمتعة سفر ، عقدت شيئا على رقبتى وغادرت فصيلتنا فى عين الليلة يتقدمنى الرجل الذى لا يفارقنا : الحلاق ـ رجل الارتباط ـ العالق بحماره • كنت متخوفا جدا لانى لم أكن عالما بما خبأه لى القدر • منذ ذلك الوقت أنا فى مقر السرية ، وقائدها يدعى هوباد ، هو من حدود الجنوب أراه خفيف الروح بصفته قائدا • ولا شك أن حنكته وهذا النوع من المرح والطلاقة التى كانت فى طبعه كل ذلك كان سببا فى حكمى ذلك عليه ، أقدمية ست سنوات • له معاونان وأمين سر لتحرير المحاضر الخاصة بالسد ، سليمان ولد طيب جدا يكبرنى بزمن قليل وكان كله فطنة ، قد أعطانى سليمان سترة وبنطال نظيفين أخذهما من ذخيرة الثياب ، وعدت بأنى آخذ عن قريب حذاء وفق رجلى • اما الحذاء الذى عندى الآن فهو أكبر مما ينبغى •

وأخيرا المحافظ السياسى ، وهذا يخص الرفاق المسؤولين ، أما غيرهم وأنا منهم فلا يكاد يجاوز عددهم أربعة ، يحتفظ بهم لحراسة مركز القيادة السرية •

هنا الغذاء لا يتغير كما فى كل مكان آخر • أما القهوة فهى أكثر من الكثير ، قد بعثت الى شايب وحامى وتافع كمية صغيرة من القهوة ملفوفة فى خرق ، أعرف أن هذا يسرهم ، والخبز الذى نأكله فى الوجبات له طعم خبز الجنة ولا ننام على الصعيد مباشرة ، بل لنا حصير •

خيالى يهيم كثيرا منذ هذا الانتقال ، لا أدرى ما قد ينجم عن هذا التغيير • وناس هذا المكان ليس لهم عين العقلية التى عند أصدقائى فى الفصيلة ، ويجعلوننى أشعر ـ لولا دوى المدافع القريبة ـ كأنهم لا يأبهون لكل ما يحدث كل ليلة على مرآى منهم

فى المنطقة المحرمة ، ألانهم لا يذهبون اليها ؟ أو لانهم رأوا هذه الاخيرة مدة أطول مما ينبغى ؟ أو ... أو ... كنت أظن أنه قد انتهى ما بينى وبين السد والمنطقة الحرام ، انخدعت ، جريت أمس أكثر من أى وقت مضى تحت القنابل ، مدة ساعات بعد البنغالور · جن قلبى من ذلك ، أمثل السرية ازاء فصيلتى القديمة فيما يهم غارة معممة ، مشيت اذن كالعادة الى السد · مدة أطول مما هو مألوف لان مقر السرية هو أبعد من مقر الفصيلة ، تعب مضاعف ، وفى الرجوع صارت ساقاى لا تمتثل لى · التحقت بالسرية منذ خمسة أيام ـ ذهبت ثلاث مرات الى السد ـ علمت أن أحد معاونى قائد السرية هو ضابط صف قديم فى الجيش الفرنسى ـ قد يكون خدم فى الهند الصينية ـ أسمعه أحيانا يتحدث عن مزارع الارز فى آسيا ·

هذه جماعة من حاملى شهادة الباكالوريا عابرى سبيل انضم لكل فصيلة من فصائل السرية فرقة منها وجهت من ألحقوا بفصيلتى ، ومنها أتيت بهم فى الصباح بعد البنغالور · فقدت فصيلة الهاون الثالثة واحدا فى المنطقة الحرام مزقته قنبلة · وسيما عابرى السبيل هؤلاء لم نعد عينها عند رجوعهم ، كانوا يتحدثون بصوت منخفض · ولكن من لا يفهم ذلك ؟

انها عجوز جد نحيلة أضافتنا · تصنع لنا خبزا أحيانا ، والقهوة دائما ، أعتبرها رائعة بشجاعتها ، ذهب ابنها الوحيد يعمل فى فرنسا قبل ثمانى سنين ، لم يكاتب أمه ولم يواف أمه العجوز بأخباره قط ، هل فقد ؟ مضيفنا لا يدرى أهى جزائرية أم مغربية ، ولا يدرى أين يكمن الفرق ، عند الرجوع من السد ـ اذا احتفظت بفتات من قوتى ـ لا أنسى أن ألقط شيئا من الاغصان اليابسة ، ذلك ما يجعله فى وقاية من دخان التبن · الحمار الذى يستعمله حلاق الكتيبة ملك له ·

لا أدرى لماذا نقلت ، لم يتغير شىء ، غير أنى يجب أن أسير على طريق أطول عند ذهابى الى السد ، البنغالور ، المدفعية ، الحراسة ، لا تغير ·

خلافا للحياة التى كنا نعيشها فى الفصيلة ، لا نعيش هنا الا فى النهار · الليل هو للنوم أو للحراسة · وهذا له صلة بحالة الانسان ، فى الصباح يأتى المسؤولون

من كل الآفاق للزيارة · رؤساء فصائل ومحافظون سياسيون بشكل خاص ، واحد منهم : التهامى رئيس الفصيلة الثانية هو نسخة طبق الاصل لشايب ، صديقى على الدوام ، ضحكه يدل عليه كل مرة · هو بنك من الحبور والتفاؤل حقا ، تراه يفاكه زملاءه حتى حين تكون الاخبار التى يأتى بها مفجعة ، يسخر التهامى بشكل خاص من معينى رئيس السرية وأحيانا يتهكم بهذا الاخير · قال لى رقاقى فى الحراسة انه فى الفصيلة الثانية لا يقع خروج الى السد بدون التهامى ·

وتزورنا شخصية أخرى من حين لآخر ، المحافظ السياسى للكتيبة ، أشقر عملاق رأيته وسمعته فى الفصيلة · بينه وبين المحافظين السياسيين للكتيبة تباين كبير · يقود هؤلاء بكرامة ، ان الصراحة التى يمتاز بها تكفل له تقدير رفاقه له وتعاطفهم معه · ومع هذا يلقى هؤلاء نادرا · مضت على ثلاث ليال بدون بنغالور وبدون منطقة محرمة · فى هذا الصباح غسلت رجلى للمرة الاولى منذ ما يقل عن تسعة أشهر بقليل · رجعنا الى السرية حوالى السادسة وشاشنا على رأسنا والبندقية تحت جلابة الخدمة · حملنا الى مقر الكتيبة رفيقين جريحين كلاهما من فصيلة التهامى الثانية · جرح أحدهما جرحا خفيفا فى الفخذ سببه شظية قنبلة والثانى تمزقت قدمه اليسرى، لغم محبرة · رجله معلقة والعظم بارز يمسكه الجلد فقط · استمر أنين الاول وغشى على الثانى · رافقنا ممرض الفصيلة ، بقى فى مقــــر الكتيبة لا أدرى لاى سبب · وعند الرجوع شعرت بأن سترتى لاصقة بجسمى لصوقا شديدا · كان ذلك من الدم · وشعــرت بوجود الدم من رائحته الخاصة رائحة ملح البحر · أعرفهما معرفة جيدة · وكان على عنق أحد البغلين اللذين حمل عليهما الجريحان بقع دم عريضة سوداء · عين الدم البشرى .

سبع ليال بدون بنغالور · لا أدرى بماذا ينبىء هذا ، ورفاقى فى الحراسة لــم يذهبوا هم أيضا الى المنطقة المحرمة · ننظر من مراكزنا تحطيم آلاف من قنابل المدفعية أظن أنه قد انتهى الزمان الذى كنا لا نهجم فيه على السد الا ثلاث مرات أو أربعا فى الاسبوع · يقطع الآن رفاق الفصائل الاشقياء كل ليلة مرة أو مرتين لهب الانفجارات ورصاص الرشاشات · ان رئيس زمرة من فصيلتى القديمة نسفه البنغالور الــذى كان قد فجره هو نفسه من قبل بقليل · وكان كثير التحدث على أولاده أحرس كــل

ليلة فى عين المكان فوق مستودع حبوب خرب ، يملأه بنغالور فى حالة انتظار ٠ من مركزى أشرف على السهل الذى يمتد حتى السد ، يخيل الى أنى أترصد عدوا لـــن يأتى أبدا ٠ أتلهى فى دقائق وساعات نوبتـى فى الحراسة متابعا بعينـى شبكـات كشافات النور والرصاص الخطاط قاطعة غياهب الليل ، يبقى مركز الحراسة شاغرا أثناء دقائق يقتضيها تبديل الحارس ٠ وأحيانا يصل مسؤولو المنطقة الى مقر الكتيبة فى آخر النهار ٠ اما فى الجبهة فيأتون الى مركز الحراسة الذى فوق مستودع الحبوب ويبقون طويلا ونظرهم مثبت على المكان الذى أضرم فيه البنغالور والمدفعية النـار ٠ وهم ملتفعون فى جلاباتهم وأيديهم فى الجيوب ٠ ذلك منظر يتذوقونه مليا وعند شن غارة معممة يأتون لاجلها وهم الذين يبتون فى أمرها لا ينصرفون عنا فور عودة الصمت الى السد ، ينتظرون رسائل الفصائل التى تحمل الاخبار ٠ كم قتيلا ؟ كم جريحا ؟ أى مركز أصيب ؟ منذ ثلاثة أشهر تقريبا صارت هذه الغارات المعممة يومية ٠

أتجنب دائما رؤية الجرحى الذين فى حالة عبور والناس يقومون بخدمتهم ٠ أخشى أن أتعرف على واحد منهم ـ أخشى أن أتعرف على صديق ٠

أكتشف شيئا فشيئا مقر الكتيبة والناس الذين يخدمون فيه ، أربعة مـراكز حراسة كلها واقعة فى أماكن غير ملائمة ولا فائدة فيها تماما ٠ ست حجرات مبنيـة بالحجر ، ثلاث لرجال الخدمة والحراسة والنقل ، الخ ٠٠ اثنتان لمديرى الراديو وثلاثة للكتاب والسادسة للمحافظ السياسى ، وقائد الكتيبة كما انهما لمحمود المعاون الذى ليس له أى صفة محارب بينما هو محارب أكثر من أى شخص آخر ، رئيس مديرى الراديو ـ هم ثلاثة ـ هو من سوق أهراس ويدعى ديه زين وفر من مدرسة سان سير بفرنسا ـ ومعاونه من تلمسان اشقر ومتأنق مفرط فى الاناقة ٠ لم يضع أحر منهما قط رجله فى المنطقة الحرام ٠ يأكل المسؤولون على حدة فى حجرتهم ٠ والكتاب الذين يرأسهم شاب هائل قادرى يأكلون مع مديرى الراديو ، والحاصل أن الآخرين يأخذون نصيبهم فى أطباق كبيرة من فخار ٠

هنا تطفأ المصابيح باكرا جدا ، أتساءل لماذا ؟ اذ مقر الكتيبة لا يرى الا من جهة المغرب ٠ وفيما يخص الضوء ليس الا ضوء بعض شمعات ٠ لمولد الكهرباء المسير للمحطة

المرسلة ـ المستقبلة جلبة هى التى تنبىء وحدها فى الليل بحضور انسان ، هنا لا يكاد أحد يتحدث أبدا عن المنطقة المحرمة · وهو عالم على حدة · ورفاق الحراسة وحدهم هم الذين يهتمون بما يحدث هنالك : فى الجبهة ، تجاهنا ، فى السد ·

والآخرون يقصون ذكرياتهم الخاصة بالحياة المدنية على أولاد يشدهم الى جوارنا باستمرار حب الاطلاع على حياة الجنود · كنت أول أمس قائما بالحراسة عندما ارتسم فى الظلام شبح زمرة أتت من قطاع التهامى الى الكتيبة بجندى من الفرقة الاجنبية قد هرب ، قصير ، أشقر ، قال لى انه ايطالى وأن اسمه ماريو وأنه هرب بسلاحه · كانت يداه مطلقتين وكان ـ على حسب ما ظهر منه ـ فى وئام مع نفسه ، ولم يكن خائفا من أى شىء أو انسان ، أذكر الليلة التى أتينا فيها شايب وأنا ببولونى عملاق · كان واقفا فى قلب المنطقة المحرمة · وكأنه كان ينتظر وصولنا ويداه مرفوعتان ، وقد قضينا دقائق طويلة قبل أن نقترب منه لمخاطبته خوفا من كمين ، فهذا لم يكن يتكلم بالفرنسية الا ألفاظا قليلة ، مد لنا سلاحه ، تساءلت كثيرا : أين كان ، ولعله كان فى قاعدة خلفية · يعنى مجلس القيادة بهم عناية طيبة ·

لى منذ قليل صديق جديد ، وأنا معتز بكونى صرت صديقه بسرعة ، يدعى فراد أرزقى ، هو من بويرة ، القبائل الكبرى ، هو الذى يوقظنى فى الليل لاخلفه فى الحراسة ، نتحدث قليلا أثناء نوبته أو نوبتى ، بقى ثلاثة أشهر فى فصيلة هاون قبل حضوره هنا ، علم الرياضيات فى ثانوية مغربية بعد ما فر من فرنسا ـ حيث تابع جزءا من دراسته ـ ليتخلص من القيام بالخدمة العسكرية ، هو متطوع مثلى ، لا أعرف أحدا فى هذا المكان يقول انه صديق أرزقى · غضوب ذو طبع كتوم ولا يتحدث الا باللهجة القبائلية أو بالفرنسية ، أظن أننى أعرف سبب هذا التعاطف السريع ، ولدت فى مسيرده على شاطىء البحر على ثلاثين كم ، تقريبا من الحدود ، ويدعى سكان مسيردة القبائل ، والناس يسخرون أكثر مما يحتمل من لهجتنا التى تشبه لهجة سكان قرية صغيرة فى شرق البلاد ، لعل فى هذا سبب حظوتى لدى أرزقى ·

أتعلم كثيرا معه ، وعلائقنا تتطور من أستاذ الى تلميذ ، لا ليجرح عواطفى أو

ليغيظنى لانى لا أعرف شيئا وأنا جاهل تقريبا بكل شيء • عندما يحدثنى عن بلاد القبائل وعن جبالها المهجورة أصف له مسيردة ومضايقها الفخمة التى تنفتح فجأة على البحر ، يثنى لى على البطولة الاسطورية لدى المحاربين القبائليين ، وأقص عليه قصة المعركة الاولى الحقيقية ضد العسكريين الفرنسيين في مسيردة على جبال فلاوسن ، اذا غضب وصفنى بأنى قروى جاهل وبصق على الارض وذهب بعد ذلك الى الاخبار من جهة مديرى الراديو ، وهكذا بلغنى بعد ذلك أن اطلاق النار وتبادل الرصاص والاغتيالات مستمرة داخل البلاد ـ رغم المفاوضات الجارية ـ وأن العسكريين الفرنسيين لا يكادون يتفقون حول ما يجب أن يأتوا أو يدعوا وأن أمواجا من المهالك تنقض على الشعب يطلقها عليه بقوة هائلة جيش لعله يتفكك ويتشتت ويأتكل فى وحشيته وحقده •

أرزقى ينعزل ويلزم الصمت أياما بأكملها عند ما تبلغه هذه الاخبار ، تسكن أسرته في بويرة حيث أبوه مستخدم بريد • أرزقى يعلمنى اللهجة القبائلية •

بقيت ست ساعات سجينا ويداى مغلولتان ـ تلك أفظع أوقات أذكرها ـ كنت أخشى ما كان ينتظرنى وأذكر باستمرار ما كان يقال عن القطاع الخاص بالمتمردين على النظام وعن الآثام الكبيرة جاء أرزقى ليقابلنى ، رجع الى حراسته بعد ما ألصقت بشفتى سجارة موقدة • كدت أبكى ، وفى المساء اجتماع كل الرجال الحاضرين فى فناء صغير قريب جدا • أثناء الغداء كنت لطمت أحد مديرى الراديو : التلمسانى ، لا أدرى كيف استطعت أن أتصرف هكذا • قد كان طلب منى فقط أن أذهب لآكل مع ناس الحراسة • يسكن روعى شيئا فشيئا بعد قلق هذه الليلة ، وكان قائد الكتيبة حليما ، أثناء وقوفى وقوف الجندى تلقيت ثلاث لطمات بيد عين مدير الراديو • وما تزال وجنتى اليمنى محتفظة بلهبها •

أرانى أرزقى اليوم منشورا لجبهة التحرير الوطنى ، هذا الاخير موجه لكل الفرنسيين المقيمين فى بلاد الجزائر • تذكرهم جبهة التحرير الوطنى بأن بلادهم هى التى يخربونها • وتقول لهم انهم ستكون لهم بقعة فى الجزائر الجديدة التى تعدها حرة خالصة من الحقد •

رجع محمود معاون الكتيبة من جولة عند السرايا ، ضحك من المغامرة المزعجة التى وقعت لى ، كما لو كان هذا مضحكا • أعطانا علبة سجائر لنقتسمها ، وضعت منها أربعا جانبا ، أغتنم الفرصة من حضور أول عابر الى قطاع فصيلتى القديمة لابعث بها الى شايب ، تلك أجمل الرسائل بالنسبة اليهم •

نحن فى قلب الريف المغربى ، معسكر قرابة ثلاثين خيمة • مركز التدريب العسكرى ، لجيش التحرير الوطنى فى هذه الناحية ، كبدانى وزيغنغان ممتلئان بالرفاق القادمين من كل حدب وصوب فى قوافل لا تنتهى منذ الجنوب حتى الحدود الشمالية ، يجدون فى هذين المركزين ليل نهار ويشحنون آلافا من صناديق الاسلحة والعتاد الحربى توقعا لبعثها الى الجزائر ، أما ما يخصنا نحن فاننا محاصرون هنا قريبا من ميدان • أعلن وقف القتال لا أدرى متى • الجزائر مستقلة •

لا تصنع شيئا هنا ـ تنتظر ـ أدع سلاحى قرب صديق وأدخل بين صخور مسيل ماء فى برودة الظل • هنا تجتمع فرقا صغيرة بنجوة من وهج نور النهار ـ رفاق لم ألقهم قط ، كلهم من المزيلين للالغام ، جمعنا فى كتيبة واحدة من عين الاختصاص من مسرحى الجراقين الذين كانوا من قبل موزعين على طول الحدود •

منظر الريف جميل جدا ، طبيعة مهجورة ، قد تأتينا الريح بنفحات من هواء البحر ، زرافات من الاطفال يعيشون باستمرار فى المخيم ، بجانبنا فى انتظار العشاء ، الناس جد فقراء فى هذه الناحية • يبعثون بأولادهم للحصول على صبابة من العيش ـ وهؤلاء الاولاد يتحدثون باللهجة القبائلية مثل أرزقى ـ لم أقابل هذا الاخير بعد ثانية ، وشايب أيضا ، علمنى أرزقى درسا لن أنساه أبدا : أن لا أسأل أحدا من أين هو ومن هو • وعند ذلك ، أنظر وأنصت للاحلام التى لا تحصى ، تضطرب وتنعقد حول محاورات الرفاق أتعلم نوعا جديدا من الحياة • وقد يحدث لى أن أستيقظ فى الليل مذعورا • فكابوس السد ما يزال عالقا بأجفان عيوننا احاذى مسيل الماء حتى يردنى التعب وأرجع أدراجى ، أرغب فى أن أسير الى طرف الدنيا ، لى رغبة حقا فى أن اعيش من جديد ••

قبل ثلاثة أشهر بلغت سن تسع عشرة سنة •

توضيح

تنشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقد قررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيات سابقة، وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا من هذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسلامى .

المرأة والأسرة في الاسلام

دكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع جامعة القاهرة سابقاً
وأستاذ علم الاجتماع بجامعة قسنطينة حاليا

لقد حفظ الاسلام أيها السادة ، للمرأة جناح الرحمة ، وشملها فى جميع تشريعاته بعطف كريم ورعاية رحيمة ، وسمى بها الى مستوى رفيع لم تصل الى مثله فى أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه وحديثه ، وسوى يبنها وبين الرجل فى معظم شؤون الحياة ، ولم يفرق بينهما الا حيث تدعو الى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له ومراعاة الصالح العام وصالح المرأة نفسها ٠

فقد سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الانسانية المشتركة فكلاهما فى نظره من عنصر واحد ومن طبيعة واحدة ، وليس لأحدهما من المقومات الانسانية أكثر مما للآخر ، وفى هذا يقول اللـه تعالى « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** » ، أى أن المرأة مخلوقة من الرجل ومن عنصره نفسه لا من عنصر آخر ، وقدانبث منهما جميع الرجال والنساء ، فكلا الجنسين يرجعان الى أصل واحد ٠ ويقول الله تعالى فى آية أخرى : « **فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض** » ، أى ان الذكور من الاناث والاناث من الذكور وليس بينهما فرق فى جوهر الطبيعة وبذلك قضى الاسلام على جميع الآراء الفاسدة التى كانت سائدة فى كثير من الملل والنحل من قبله بشأن طبيعة المرأة واختلافها عن طبيعة الرجل فقد كان بعض هذه الآراء يذهب الى أن المرأة من طبيعة انسانية وضيعة بالقياس الى طبيعة الرجل ، وبعضها كان يذهب الى أنها من عنصر غير طاهر وغير زكيى ، بل لقد ذهب بعضها

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 8/17 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م ٠

الى أبعد من هذا كله ، فاعتقد أنها رجس من عمل الشيطان ، أو من عمل اله الشر ، وعلى أساس هذه العقيدة انتشر فى كثير من الشعوب عادة التخلص من البنات بقتلهن أو وأدهن عقب ولادتهن،حتى يتخلص من هذا الكائن الذى هو رجس من عم لالشيطان أو من عمل الـه الشر ، ومن أشهر الشعوب التى انتشرت لديها هذه العـادة على أساس العقيدة التى نتحدث عنها بعض قبـائل العرب فى الجـاهلية وخاصة بعض بطون من قريش وتميم وطيى وربيعة .

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمـة الانسـانية المشتركة وقرر أنهما من طبيعة واحدة ومن عنصر واحد ، وأن ليس لأحدهما من مقومات الانسانية أكثر مما للآخر ، كما قرر ذلك وسوى بينهما فى هذ هالناحية سوى بينهما كذلك فى شؤون المسؤوليـة والجزاء فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « **من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » ويقول فى آية أخرى : « **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** » ويقول فى آية ثالثة : « **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** » وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء ، سوى بينهما كذلك فى الحقوق المدنية بمختلف أنواعها ، فأعطى المـرأة الحقوق المدنية نفسها التى أعطاها للرجل ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون متزوجة أو غير متزوجة ، فمن قبل الزواج يكون للمرأة فى نظر الاسلام شخصيتها المدنية الكاملة المستقلة عن شخصية أبيها أو من هى تحت رعايته فان كانت بالغة كان لها الحق فى اجراء مختلف العقـود ، وتحمل الالتزامات ، وتملك العقار والمنقول ، والتصرف فيما تملك ، ولا يجوز لوليها أن يجرى أى اجراء قانونى يتعلق بها أو بأموالها الا اذا أذنت له بذلك أو وكلته فى اجراء عقد بالنيابة عنها ، وان كانت قاصرة وجب على وليها اذا كان لها مال انتقل اليها عن طريق الهبـة أو الوراثة أو الوصية وما الى ذلك أن يحتفظ لها بمالها وأن ينميه وأن يستثمره ما استطاع الى ذلك سبيلا ، حتى تصل الى مرحلة البلوغ فيؤديه اليها مع ما عسى أن يكون قد أنتجه من فوائد ، ولا يحق لـه أن يأخذ شيئا من مالها ، وقد نهى القرآن عن ذلك نهيا شديدا وتوعد

مرتكبيه بأشد عذاب فى الآخرة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **وءاتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا امـوالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبـير** » ويقول : « **وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تاكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا** » ، ويقول : « **ان الذين ياكلون أموال اليتامى ظلما انما ياكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** » ويقاس عـلى اليتيمات غيرهن اذا انتقل اليهن مال عن طريق الهبة أو الوراثة أو الوصية أو غير ذلك،هذا فيما يتعلق بوضع المرأة من الناحية المدنية قبل الزواج ، وكذلك شأنها فى نظر الاسلام بعد الزواج ، وذلك أن الزواج فى الاسلام يختلف اختلافا جوهريا عن الزواج فى معظم امم الغرب المسيحي فى أنه لا يفقد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنيـة ولا أهليتهـا فى التعاقد ولا حقها فى التملك ، بل تظـل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية وبأهليتها فى تحمل الالتزامات وإجراء العقود بمختلف أنواعها مـن بيع وشراء وهبة ورهن ووصية وما الى ذلك ، ومحتفظة كذلك فى حقها فى التملك تملكا مستقلا عن غيرها وبحقها فى التصرف فيمـا تملك ، فللمرأة المتزوجة فى الاسلام شخصيتها المدنيـة الكاملـة وثروتها الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها وثروته ، ولا يحق لزوجها أن يأخذ شيئا من مالها قل ذلك الشيء أو كثـر . وفى هذا يقول الله تعالى : « **وان أردتم استبـدال زوج مكـان زوج وآتيتـم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا ، اتـأخـذونـه بهتـانا واثمـا مبينـا ؟ ! وكيف تاخذونه وقد افـضى بعضكم الى بعض واخـذن منكم ميثاقا غليظا** » ، ويقول فى آية أخرى : « **ولا يحل لكم أن تاخذوا مما آتيتموهن شيئا** » واذا كان لا يحل للزوج أن يأخذ شيئا مما آتاه لزوجته فانه لا يحل له من باب أولى أن يأخذ شيئا من مالها الأصيل الا أن يكون هذا أو ذاك برضاها وعن طيب خاطر منها ، وفى هذا يقول الله تعالى : « **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا** » ، ولا يحق للزوج كذلك أن يجرى أى اجراء قانونى باسم زوجته الا اذا أذنت له بذلك أو وكلته فى اجراء عقد بالنيابة عنها،وفى هذه الحالة يجوز لها أن تلغى وكالته وتوكل غيره اذا شاءت .

ويبدو أيها السادة سمو هذه المبادىء الاسلامية بالموازنة بينها وبين الشرائع السابقة للاسلام ·

فالشريعة اليهودية مثلا تجرد المرأة من معظم حقوقها المدنية وتجعلها تحت الوصاية المطلقة لأبيها قبل زواجها وتحت الوصاية المطلقة لزوجها بعد زواجها ، وتنزلها فى كلتا الحالتين منزلة لا تزيد كثيرا عن منزلة الرقيق ، بل ان هذه الشريعة لتتيح للوالد المعسر أن يبيع ابنته بيع الرقيق لقاء ثمن يفرج به أزمته ·

وكذلك كان الشأن عند قدامى اليونان والرومان حتى فى أزهى عصورهم وأدناها الى النظام الديموقراطى ، فالقانون الرومانى يجرد المرأة من معظم حقوقها المدنية ويضعها قبل زواجها تحت سيطرة رئيس الأسرة ، الذى قد يكون أباها أو جدها لأبيها ، وتعطيه هذه السيطرة كافة الحقوق عليها حتى حق الحياة أو الموت ، وحق اخراجها من الاسرة وبيعها بيع الرقيق · وبعد زواجها واعتراف الزوج بها تصبح فى نظر القانون الرومانى بمثابة بنت من بنات الزوج ويحل زوجها محل أبيها أو جدها لأبيها فى كافة الحقوق السابق ذكرها ·

ولا يقتصر القانون اليونانى على تجريد المرأة اليونانية من معظم حقوقها المدنية ووضعها تحت السيطرة المطلقة للرجل فى مختلف مراحل حياتها ، بل انه ليعتبرها هى نفسها من «ممتلكات» ولى أمرها قبل زواجها ومن «ممتلكات» زوجها بعد زواجها ، ولا يميزها فى الحالة الاخيرة الا بمميزات تافهة عن ملك يمينه من الجوارى والسريات ·

بل ان هذه المنزلة من المساواة التى قررها الاسلام بين الرجل والمرأة فى الحقوق المدنية لم تصل الى مثلها أحدث القوانين فى أرقى الأمم الديموقراطية الحديثة ، فحالة المرأة المتزوجة فى فرنسا مثلا كانت الى عهد قريب أشبه شىء بحالة الرق المدنى ، فقد جردها القانون من معظم حقوقها المدنية كما كانت تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى اذ تقرر **« ان المرأة المتزوجة حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تبيع ولا أن تهب ولا أن**

ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض وبدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » ، ومع ما أدخل على هذه المادة فيما بعد من قيود وتعديلات فان آثارها لا تزال عالقة بوضع المرأة الفرنسية المتزوجة من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر ، ولتوكيد هذا الرق المدنى الذى فرضته الشعوب الغربية على المرأة المتزوجة تقرر قوانين هذه الشعوب ويقتضى عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها،فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان،بل تحمل اسم زوجها واسم أسرته ، وفقدان المرأة الغربية لاسمها واسم اسرتها وحملها لاسم زوجها واسم أسرته ، كل ذلك يرمز الى اهدار شخصيتها المدنية واندماجها فى شخصية الزوج ،يرمز الى أن الزوج قد أصبح هو الممثل لها فى جميع الشؤون ، على حين أن الاسلام يحيط الشخصية المدنية للمرأة المتزوجة بسياج من الحماية والاحترام فيحتفظ لها باسمها واسم أسرتها ولا يحملها اسم زوجها ولا اسم أسرته مهما كانت مكانة هذا الزوج ، فزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أنفسهن كن يسمين بأسمائهن وأسماء آبائهن فكان يقال «عائشة بنت أبى بكر» «وحفصة بنت عمر»ولم تحمل واحدة منهن اسم زوجها ، مع أنهن كن زوجات لخير خلق الله ، واحتفاظ المرأة المسلمة المتزوجة باسمها واسم أسرتها وعدم حملها اسم زوجها كل ذلك يدل على احتفاظها بشخصيتها وعدم ذوبانها فى شخصية الزوج ،ومن الغريب أن كثيرا من سيداتنا العربيات المسلمات يحاولن ان يتشبهن بالغربيات حتى فى هذا النظام الجائر ، ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة ، فتسمى الواحدة منهن نفسها باسم زوجها ، أو تتبع اسمها باسم زوجها بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها ، كما هو النظام الاسلامى ، وهذا أقصى ما يمكن أن تصل اليه المحاكاة العمياء ، واغرب من هذا كله أن اللائى يحاكين هذه المحاكاة يتألف معظمهن من المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال ، ولا يدرين أنهن بعملهن هذا يفرطن فى أهم ناحية من نواحى المساواة التى يطالبن بها ، وفى أهم حق منحه الاسلام لهن ورفع به قدرهن وساواهن فيه بالرجال .

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء وفى الحقوق المدنية بكافة

أنواعها ، فقد سوى بينهما كذلك فى حق التعلم والثقافة ، فأعطى المرأة الحقوق نفسها التى أعطاها الرجل فى هذه الشؤون ، وأباح لها أن تحصل على ماتشاء أن تحصل عليه من علم وأدب وثقافة وتربية وقد ذكر لكم الأخ مولود قاسم فى محاضرة الصباح نصوصا كبيرة عن المجاهد الكبير **عبد الحميد بن باديس فى هذا الموضوع** ، نصوصا تدل على أن الاسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة فى حق التعلم والثقافة ، وأضيف أنا الى ما قاله فى هذا الصدد ان الاسلام لم يكتف باباحة التعلم والثقافة للمرأة وبالمساواة بينها وبين الرجل فى هذا الحقل ، بل انه ليوجب عليها التعلم والثقافة فى الحدود اللازمة لشؤون دينها وحسن قيامها باعبائها فى الحياة ، ولقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم وجعله فريضة عليهن فى هذه الحدود · وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » ، وقد ضرب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أروع مثل فى الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجته حفصة بنت عمر أم المؤمنين فقد ذكر البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان · **ان الشفاء العدوية ، وهى سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة فى الجاهلية ، وكانت تعلم الفتيات القراءة والكتابة ، وان حفصة بنت عمر اخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالنبى عليه افضل الصلاة وازكى السلام · ولما تزوجها النبى (ص) طلب الى الشفاء العدوية أن تتابع تعليمها وتثقيفها وان تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها اصول الكتابة** وتدلنا شواهد تاريخية كثيرة أن أبواب التعليم والثقافة كانت مفتحة على مصاريعها للمرأة المسلمة فى جميع عصور الاسلام الزاهية ؛ فى عصر الرسول (ص) وعصر الخلفاء الراشدين وعصر بنى أمية وعصر بنى العباس ، وانه بفضل ذلك نبغ عدد كثير من النساء العربيات والمسلمات وبرزن فى علوم القرآن والسنة والفقه والادب واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون ، بل لقد كان منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الاسلام ، **فقد ذكر ابن خلكان ان السيدة نفيسة صاحبة المقام المعروف بمصر كان لها بمصر مجلس علم شهده الامام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه الحديث وذكر أبو حيان من بين اساتذته ثلاثا من النساء درس عليهن واخذ**

عنهن العلم ، هن مؤنسة الايوبية بنت الملك العادل اخى صلاح الدين الايوبى وشامية التيمية وزينب البغدادية بنت الرحالة الطبيب المؤرخ الكبير عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر بعد وفاة صلاح الدين الايوبى وكتب عن احوال مصر كتابا جعل عنوانه (الافادة والاعتبار فى احوال مصر) .

ويظهر سمو هذه المبادىء التى سنها الاسلام فيما يتعلق بالمساواة بين المرأة والرجل فى حق الثقافة والتعلم بالموازنة بينها وبين الشرائع السابقة للاسلام ، فقوانين أثينا نفسها التى يعدونها من أرقى القوانين فى العصور القديمة وأدناها الى النظام الديموقراطى ما كانت لتتيح فرصة للتعليم والثقافة الا للذكور الاحرار من المواطنين بينما كانت توصدها ايصادا تاما فى وجه النساء ، وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه كبير فلاسفتهم «أرسطو» وصاغها فى صورة نظرية علمية اذ يقول فى كتابه «**السياسة**» : **ان الطبيعة لم تزود المرأة بأى استعداد عقلى يعتد به ، وبذلك يجب أن تقتصر تربيتها على شؤون التدبير المنزلى والامومة والحضانة وما الى ذلك** . ولم يكن أرسطو فى ذلك معبرا عن رأيه الشخصى وانما كان مترجما لنظام كان يجرى عليه العمل فى أثينا التى يعدونها كما قلت لكم من أرقى الأمم فى النظام الديموقراطى فى العصور القديمة ، ولذلك لما نادى أستاذه أفلاطون فى كتابه «**الجمهورية**» بوجوب المساواة بين الرجل والمرأة فى حق التعلم والثقافة وفى حق الانتخاب كانت آراؤه هذه موضع سخرية وازدراء من جميع مفكرى أثينا وفلاسفتها وشعرائها ، حتى أن ارستوفان عميد شعراء الكوميديا فى ذلك العصر قد وضع تمثيليتين كاملتين وقفهما على السخرية بآراء أفلاطون والتهكم بها وهما : «**برلمان النساء**» و «**بلوكوس**» .

بل لقد ظلت الامم الاوروبية الحديثة نفسها تنكر على المرأة حق التعلم والثقافة حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى شاعر فرنسا (**موليير**) اذ يقول فى مسرحيته التى جعل عنوانها «**النساء المتحذلقات**» على لسان أحد أبطالها «**انه لا يليق بالمرأة لعدة اعتبارات ان تضيع وقتها فى التعلم والثقافة فوظائفها الاساسية التى ينبغى ان تستأثر**

بكل جهودها وفلسفتها لا تتجاوز تربية الاولاد وشؤون التدبير المنزلى والسهر على حاجة افراد الاسرة والاقتصاد فى نفقات البيت» .

وفى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ظهرت أصوات ضعيفة تنادى بتعليم المرأة فى حدود ضيقة كل الضيق ، وكان على رأس المنادين بذلك العلامة الفرنسى «فنلون» فى كتابه الذى ظهر فى أواخر القرن السابع عشر تحت عنوان (تربية البنات) ، ولكن هذه الاصوات ـ مع شدة تحفظها وتواضعها فيما نادت به ـ لم تلق استجابة يعتد بها من معظم الامم الأوروبية فى ذلك العهد .

بل لقد ظلت التيارات المعادية لتعلم المرأة مسيطرة على أوروبا الحديثة حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، واليكم مثلا عاهل بروسيا **بسمارك الذى حدد للمرأة الالمانية** ـ كما أشار الى ذلك معالى الاخ مولود قاسم فى الكلمة التى ألقاها صباح اليوم ـ **حدد للمرأة الالمانية ثلاث مجالات لنشاطاتها لا تخرج عنها ، وهى : تربية اطفالها وشؤون مطبخها ، واداء شعائرها الدينية فى الكنيسة» .**

من هذا يظهر أن الاسلام ـ على عكس الشرائع السابقة واللاحقة له ـ قد هيأ للنساء فرصا كثيرة لا للتعلم العادى بل كذلك للثقافة العالية ، وأن من انتهزن منهن هذه الفرص بلغن أعلى درجة أتيح للرجال أن يبلغوها كالاسماء التى ذكرتها لكم ، ويظهر كذلك أن الجهالة التى كانت متفشية بين النساء المسلمات فى الاجيال السابقة لا يرجع سببها الى النظم التربوية فى الاسلام ، وانما يرجع الى انحراف المسلمين عن النظم القويمة التى سنها الاسلام فى شؤون التربية والتعليم ، واذا كانت الامم العربية والاسلامية قد أخذت فى العهد الحاضر تتجه ، الى تعليم المرأة وتثقيفها فانها بذلك لم تات بدعا من العمل ، وانما أحيت سنة صالحة قويمة سنها الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه وسار عليها أجيال كثيرة من بعده من المسلمين .

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء وفى الحقوق المدنية وفى حق الثقافة والتعلم سوى بينهما كذلك فى حق العمل ، فأباح للمرأة أن تظطلع بالوظائف والاعمال التى تحسن أداءها و لاتتناقض مع طبيعتها ، ولم يقيد هذا الحق الا بما يحفظ للمرأة كرامتها

ويصونها عن التبذل وينأى بها عن كل ما يتنافى مع الخلق الكريم ، فاشترط الاسلام اذا كانت المرأة تؤدى عملا فى خارج منزلها ، أن تؤديه فى وقار وحشمة ، وفى صورة بعيدة عن مظان الفتنة ، وان لا يكون فى عملها هذا ما يؤدى الى ضرر اجتماعى أو خلقى ، أو ما يعوقها عن تأدية واجبها نحو بيتها وزوجها وأولادها ، أو يحملها مالا طاقة لها به ، وأن لا تخرج فى زيها وزينتها وسترها لاعضاء جسمها واختلاطها بغيرها من الرجال أن لا تخرج فى هذا كله عن الاوضاع التى سنها الاسلام فى هذا الصدد ، هذا كل ما قيد به الاسلام حق العمل للمرأة ، وهذه القيود منصبة على ما تؤديه المرأة من عمل فى خارج بيتها ، وقد كانت النساء فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يقمن بكثير من الأعمال فى داخل بيوتهن وفى خارجها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرهن على ذلك،واليكم مثلا : **اسماء بنت ابى بكر الصديق وهى أخت عائشة ام المؤمنين ، وزوجة الزبير حوارى الرسول عليه السلام وابن عمته ، كانت تؤدى جميع الاعمال اللازمة لبيتها وزوجها وانعامها فى داخل بيتها وفى خارجه لا تستنكف عن شىء من ذلك وهى نفسها تقول : «كنت اخدم الزبير خدمة البيت كله وكنت اسوس فرسه واعلفه ، واحتسى له ، وكنت احرز الدلو،واسقى الماء واحمل النوى على راسى من ارض له على ثلثى فرسخ»** ، بل لقد اضطلعت المرأة المسلمة ببعض شؤون الحرب فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ومن بعده ، فلم تخل غزوة من غزوات الرسول عليه السلام من نساء يقمن بمساعدة المحاربين وأعمال الاسعاف للجرحى ومن بين هؤلاء من سجل لهن التاريخ مواقف بطولة مجيدة كالسيدة **امية بنت قيس الغفارية التى اكبر الرسول عليه الصلاة والسلام حسن بلائها فى غزوة خيبر فقلدها قلادة تشبه الاوسمة الحربية فى هذا العصر ، وظلت هذه القلادة تزين صدرها مدة حياتها ولما دفنت دفنت معها عملا بوصيتها .**

ويظهر أيها السادة سمو هذه المبادىء التى قررها الاسلام فيما يتعلق بالمساواة بين الرجل والمرأة فى حق العمل ، يظهر سموها بالموازنة بينها وبين كثير من المبادىء التى كانت مقررة فى العصور القديمة بل بين كثير من المبادىء التى كانت مقررة فى العصور الوسطى والحديثة ، وقد ذكر معالى الأخ مولود قاسم بعض أمثلة

وبعض نصوص جاءت على ألسنة قواد ومصلحين وقادة يقولون فيها ان المرأة لا ينبغي لها من الاعمال الا الاعمال التى هى فى داخل البيت أو فى داخل الكنيسة أو فى داخل المطبخ ٠

هذه أيها السادة هى أهم وجوه المساواة التى قررها الاسلام بين المرأة والرجل مساواة فى القيمة الانسانية المشتركة ، ومساواة فى المسؤولية والجزاء ، ومساواة فى الحقوق المدنية ، بمختلف أنواعها ، ومساواة فى حق التعلم والثقافة ومساواة فى حق مزاولة العمل ، وهذه هى أهم وجوه المساواة فى الحياة ٠

ولا يفرق الاسلام بين الرجل والمرأة الا حيث تدعو الى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له أو حيث تدعو الى هذه التفرقة مراعاة الصالح العام وصالح الاسرة وصالح المرأة نفسها واليكم مثلا تفرقة الاسلام بين الرجل والمرأة فى الميراث اذ يقرر أن المرأة لها فى معظم الاحوال نصف نصيب الرجل المساوى لها فى القرابة ، فقد بنيت هذه التفرقة على أساس اقتصادى سليم ، بنيت على أساس التفرقة بين أعباء الرجل فى الحياة وأعباء المرأة وذلك أن مسؤولية الرجل فى الحياة أوسع كثيرا من مسؤولية المرأة وأعباؤه فيها أشق وأثقل كثيرا من أعباء المرأة ، فالرجل هو رب الاسرة وهو القوام عليها والمكلف بالانفاق على جميع أفرادها ، على حين أن المرأة لا يكلفها الاسلام حتى الانفاق على نفسها ، فنفقتها واجبة على أبيها أو وليى أمرها ما دامت غير متزوجة ونفقتها ونفقة بيتها وأولادها واجبة على زوجها بعد زواجها ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون موسرة أو معسرة ، فاقتضت العدالة اذن أن يكون نصيب الرجل من الميراث أكبر من نصيب المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه الاعباء الثقيلة التى وضعها الاسلام على كاهله ، وأعفى منها المرأة رحمة بها وحدبا عليها وحفاظا على سعادة الاسرة ، بل ان الاسلام قد بالغ فى رعايته للمرأة اذ قرر لها نصف نصيب نظيرها من الرجال فى الميراث مع اعفائه اياها من جميع الاعباء ، ووضعها جميعها على كاهل الرجل ٠

وقبل أن أختم كلمتى هذه ، أريد أن أعقب تعقيبا يسيرا على الكلمة القيمة البليغة التى ألقاها فى افتتاح هذا الموسم صديقى معالى الاستاذ مولود قاسم فيما يتعلق بزواج المسلمين من الاجانب فقد ذكر سيادته ان هذا الزواج مباح فى الاسلام ولكن على الرغم من انه مباح ومن انه حلال فانه يتنافى مع واجب قومى ، وأنا أعقب على

هذا بان زواج المسلم بالنصرانية أو اليهودية ليس مباحا فى جميع المذاهب الاسلامية بل **ان هناك مذاهب اسلامية صحيحة تحرم زواج المسلم بالنصرانية واليهودية ، وهذا مذهب الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين ابن الحسين رضى الله عنه الذى كان استاذا لابى حنيفة وهو المذهب الذى يسير عليه الآن نحو خمسين مليونا من المسلمين ·**

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وأسأله لى ولكم الهداية والتوفيق ·

الفقه الاسلامى وحرية الفكر

الأستاذ محمد بن سالم الفهرى الفاسى

أستاذ التفسير والحديث
بجامعة القرويين
المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى الوزير

اخوانى ، أخواتى ،

قبل البداية فى الحديث أوجه شكرى للذين نظموا هذا اللقاء ، مع اخوة تربطنا بهم عدة روابط ، رابطة الجوار ، رابطة الدين ، رابطة التاريخ المشترك ، رابطة النضال ومقاومة الدخيل. وأتمنى أن يتجدد هذا اللقاء من حين لآخر ، فى ديار العروبة والاسلام ، وأن نعمل جميعا فى يد واحدة على تحقيق أفكارنا الهادفة .

عنوان حديثى «الفقه الاسلامى وحرية الفكر» أو «لماذا تعددت المذاهب فى الفقه الاسلامى» ،من حق الملاحظ أن يطرح هذا السؤال كلما سمع خلافا مذهبيا،أو انقساما فى الرأى ينتج عنه تعدد الاحكام بالنسبة للقضية الواحدة ، ومن حقه أيضا أن يواجه المتحدث بنفس السؤال : كلما رأى هذا المذهب يضيق الخناق وآخر يعتدل ، وآخر يفتح الباب على مصراعيه للرخص ونبذ التأويل ، والقيود المشددة وآخر يحكم الرأيي والقياس . ومسامعكم يحاول مع تواضع ، القيام ببحث علمى محدد الاطراف ، قاصدا من ورائه الوصول الى نتيجة مقنعة ، نطمئن اليها جميعا ، ونستطيع بها أن نذب عن فقهنا وما يصمونه به ، وما يخوض فيه الخائضون . ومن المفيد أن تكون البداية بعرض ما يعنى من الآيات ، التى ترشد الى الائتلاف ووحدة الصف، وتنهى عن التفرق والاختلاف .

وهذا التفرق قسم منه لا يمكن أن يسلم منه البشر،فالنهى عنهمن قبيل التكليف بما لا يستطاع ، وليس بمراد فى الآيات القرآنية. وقسم

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م.

يمكن الاحتراس منه وهو المراد بها٠أما الاول فهو الخلاف فى الفهم والرأى ولا مفر منه ، لانه مما فطر عليه البشر كما قال الله سبحانه « **ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم** » ٠ فاستواء الناس فى العقول والافهام مما لا سبيل اليه ولا مطمع فيه اذ هو من قبيل الحب والبغض ٠ فالاخوة الاشقاء فى البيت الواحد تختلف أفهامهم فى الشىء ، كما يختلف حبهم له وميلهم اليه ٠ وأما الثانى وهو الذى يجب اجتنابه ، وما جاءت الاديان السماوية الا للقضاء عليه ، وهو الذى يهدف الى تحكيم الاهواء ، فى الدين والاحكام ، لان اتخاذها حكما يضر البيئة والمجتمع ، وتدوس ما يسمى بالهداية التى نركن اليها لأزالة ما يضر ، وجلب ما ينفع ٠

واذا أمعنا النظر فى الاسباب التى حدت بالبشر الى تعدد اديانهم نراها تنطبق بالتالى على الفئة التى تعددت مذاهبها٠قال الاستاذ الامام فى تفسيره المنار ، الجزء الثالث ،الصفحة السابعة ، عند تفسيره لقول الله سبحانه « **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر** » ٠ قال الاستاذ : «**لم يخلق الله الناس بقوى محددة متساوية ، كالانعام السائمة والطيور الحائمة ،بل خلق الانسان كما نعرفه الآن ، جعل له عقلا ، يتصرف فى أنواع شعوره ، وفكرا يجول فى طرق حاجاته البدنية والنفسية ، وجعل ارتقاءه فى ادراكه وأفكاره كسبا ينشا ضعيفا فيتقوى بالتدريج حسب التربية التى يحاط بها ، وجعل هداية الدين له أمرا اختياريا لا وصفا اضطراريا ، فهى معروضة أمامه يأخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شأنه فى الاخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون ٠**

هذه هى سنته تعالى فى الانسان ، وهى منشأ الاختلاف ، فهو يقول لو شاء الله ألا يجعل سننه فى تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا ، بأن يجعله من الهاماتهم العامة ، وشعورهم الفطرى كشعور الحيوان والهامهم ما فيه منفعة ، لكانوا فى هداية الدين سواء ، يسعدون به أجمعين ، فتمنعهم بيناته أن يختلفوا فيقتتلوا ، ولكنه خلق الانسان على غير ما خلق عليه الحيوان وكان ذلك سبب اختلاف أهل الاديان ، فمنهم من آمن ايمانا صحيحا ، فأخذ الدين على وجهه اذ فهمه حق فهمه ، ومنهم من لبسه مقلوبا وحكم هواه فى تأويله

فكان كافرا به فى الحقيقة ، وان كان غاليا فيما أحدث فيه من مذهب أو طريقة ، وكان ذلك مدعاة التخاصم ، وسبب التنازع والتقاتل ٠ اختلف اليهود فى دينهم فاقتتلوا ، وأما النصارى فلم تختلف أمـــة اختلافهم ولم يقتتل أهل المذاهب فى دين من الاديان اقتتالهم ، بـل كان المذهب الواحد من مذاهبهم يتشعب الى شعب يقاتل بعضهـــا بعضا ، وكان يجب أن يحذر المسلمون من هذا الاختلاف أشد الحذر ، لكثرة ما نهاهم الله عن الاختلاف وأنذرهم العذاب عليه فى الـــدنيا والآخرة ، وقد امتثلوا أمره تعالى بالاتحاد والاعتصام ، وانتهوا عمـــا نهاهم عنه من التفرق والاختلاف فى عصر صاحب الرسالة وطـائفة من الزمن بعده ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ٠ ثم لم يلبثـوا أن ذهبوا فى الدين مذاهب وفرقوا دينهم فكونوا فى شريعتهم مشارب ، فاقتتلوا فى الدين قليلا ، وفى السياسة التى صبغوها بصبغة الدين كثيرا وقد تنادوا فى هذا الشقاء والاختلاف فانتهوا الى زمن صاروا فيه أبعد الامم عن الاتفاق والائتلاف ، و نظرا لطول هذا النص تعـين ايضاحه ، مؤهلات بنى الانسان ومواهبهم متفاوتة ، ولذلك لم يكونوا فى مستوى واحد والا لكانوا مثل الحيوان ، لذا امتاز فريق بالنبوغ وفتحت فى وجهه الطرق المؤدية به الى نيل ما يتمناه ، واستطـــاع بمواهبه أن يأخذ من الهداية ويستفيد من منافع الكون ، ووسم فريق آخر بالتحجيب الفكرى ، فحكم الهوى والغرض فى مجريات عقائـده وبالغ فى احداث هذا المذهب والطريقة ، كل ذلك خاضع للتـربية التى تحاط بالجميع وحوادث الزمان والمكان والاسوة والتجـارب ، الا اننا مع احترامنا لمكانة الاستاذ الامام العلمية والاصلاحية ، حـز فى النفس أن يقول عن المسلمين انتهوا من زمن صاروا فيه أبعـــد الامم عن الاتفاق والائتـــلاف ٠

المسلمون والاستاذ الامام أعرف الناس بتاريخهم حدث لهم مثلما حدث لغيرهم ، ليسوا بشواذ عن الطبائع البشرية عجمت عـودهـم الاحداث ولصقت بهم طفيليات حان الوقت لان ينبذوها ويـؤسســوا جامعة اسلامية تبعث الامجاد وتسارع الزحف التقدمى ٠

كان السبب فى الخلاف بين أئمة الفقه ، لكون مالك مثلا نشـأ فى المدينة وتتبع عن كثب ما فطر عليه أهلها ٠ حسن حالهم وسلامة قلوبهم دفعته لان يقول فى حقهم : ان عمـل أهل المدينة أصـل من

أصولي وما كانوا كذلك الا لمعاشرتهم للرسول وصحبه ٠ فمن المتعذر ألا يتأسوا بالرسول ولا يسلكوا منهاجه سيما والاسلام فى بدايته ٠ اما أبو حنيفة ، فنشأ فى العراق وأهلها كما اشتهر عنهم ، أهل شقاق ونفاق،فهو معذور اذا لم يحتج بعملهم ولا بعمل غيرهم قياسا عليهم٠

فلو اجتمع الامامان مالك وابو حنيفة ، وتبادلا الرأى ، لأقنع كل واحد منهما الآخر بالحجج التى يتسلح بها صاحبه ، لكن الاتباع أعماهم التقليد فصار الهوى والغرض الشخصى ، هو الحاكم فى الدين حالت الاحقاد والضغائن بينهم وبين نشدان الحق فتعصب كل فريق لرأى امامه ، وانقاد انقياد الاعمى ٠ وليت شعرى لو كان هذا التعصب فى بعض الاحيان ، مبنيا على أساس صحيح ، فكيف نستسيغ عقلا أن نصدق كل ما قال الامام مالك اليوم ، وقد مر على وفاته أزيد من ألف سنة ، وما قيل فى مالك يقال فى بقية الائمة ٠ ويروقنى هنا ما قاله أستاذنا الامام ، فى المنار ، الجزء الرابع صفحة 24 ، هذا النوع من الخلاف هو الذى ذلت به الامم بعد عزها ، وهوت بعد رفعتها ، وضعفت بعد قوتها ، هو الافتراق فى الدين ، وذهاب أهله مذاهب تجعلهم شيعا تتحكم فيهم الاهواء ، كما حصل من الفرق الاسلامية لا يكاد أحدهم يعلم أن الآخر خالفه فى رأى الا ويبادر الى الرد عليه بالتأليف ، وبذل الجهد فى تضليله وتنفيد مذهبه ٠ ويقابله الآخر بمثل ذلك ، لا يحاول أحد منهم محادثة الآخر والاطلاع على دلائله ووزنها بميزان الانصاف والعدل ٠

فالواجب أولا ، محاولة الفهم والافهام فى البحث والمذاكرة ، وألا يكون الخلاف مفرقا بين المختلفين فى الدين ٠ فما دام المسلم لا يخل بنصوص كتاب الله ، ولا باحترام الرسول صلوات الله عليه ، فهو على اسلامه لا يكفر ولا يخرج من جماعة المسلمين ٠ فاذا تحكم الهوى فلعن بعضهم بعضا ، وكفر بعضهم بعضا ، فقد باء بها من قالها ، كما ورد فى الحديث الشريف ٠ واذا رجعنا الى المبررات التى جعلت أبا حنيفة يعتمد على الرأى أكثر من الحديث ، أولا : الاقتداء بالخليفة عمر رضى الله عنه ، فقد حكم رأيه فى نص قرآنى صريح ، يتعلق بمصرف من مصارف الزكاة ، وهذا معناه انه لم يكن فى عهده رضى الله عنه ، مؤلفة القلوب وان اعطاء نصيب من الزكاة لهم شرع لعلة معينة ، والعلة كما هو معلوم ، تدور مع المعلول وجودا وعدما ، وليس

ما فعله عمر ناسخا لحكم ثبت بالكتاب والسنة ، لان عهد النسخ انقضى بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الواقع أن ما فعله الخليفة عمر فيه تضامن وتأييد لما قصده الرسول من اعطاء مؤلفة قلوبهم وهو اعزاز الاسلام • ثم منع عمر ما فعله الرسول لان الاسلام لم يعد فى حاجة اليهم ، ولو كان صنيعه نسخا لما أعطى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، لمن يرى تالفه على الاسلام ، حيث أعطى البطريرق ألف دينار انظر الصفحة الخامسة عشر من كتاب «الفتح القديم» الجزء الثانى • واستمر الحال هكذا • وثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعطى بعض الناس ، ليتالف قلوبهم للاسلام ، مثل أبى سفيان ، وصفوان ابن أمية ، الذى قال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم : لقد أعطانى وهو أبغض الناس الى ، فما زال يعطينى حتى كان أحب الناس الى • واستمر الحال هكذا فى زمن أبى بكر فلما تولى الخليفة عمر مزق الكتاب وقال : **«ان الله أعز الاسلام واغنى عنكم ، فان تبتم عليه ، والا فبيننا وبينكم السيف»** •

عمر ـ كما ترون ـ اتخذ موقفا يتفق مع المصلحة ، لما كان المسلمون قليلى العدد أوجبت الآية حسب رأيه جلب مؤلفة قلوبهم بالصدقة ، فلما كثر عدد المؤيدين ، ارتأى الخليفة منعهم منها ولم يقطع الخليفة عمر يد السارق فى عام المجاعة اعتمادا على الاصل الشهير فى الاسلام ، **ادرأوا الحدود بالشبهات** والامثلة من هذا القبيل كثيرة لا يأتى عليها الحصر • وأشهر من لم يحد عن طريقته قيد انملة **الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، روى ابن القيم فى اعلام الموقعين أن ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمر فى شىء من مذاهبه حيث لا نص** ، وعمر رضى الله عنه لا يقول بحرفية النص ، وبما ان العراق كان يضم أكبر مدرسة للرأى وكان حامل لوائها ابن مسعود ، فقد وجد أبو حنيفة ضالته حيث أخذ عن تلامذة ابن مسعود فاسترشد بهم وسار على سننهم فلا غرابة اذا كان الرأى أصلا من أصوله ، ويرجع ذلك كما قال الاستاذ المرحوم أحمد أمين فى كتابه «فجر الاسلام» صفحة 241 الى أسباب ثلاثة :

اولا : ما ذكر من تأثيل عبد الله بن مسعود وهو ما علمت من ميل للرأى مشارك فيه استاذه عمر •

ثانيا : ما ذكره ابن خلدون من ان الحديث كان فى العراق قليلا وكان أكثر هواة الحديث فى الحجاز ، لانه موطن النبى وكبار الصحابة.

ثالثا : ان العراق قطر متمدن تأثر الى درجة كبيرة بالمدنية الفارسية واليونانية ، والمدنية تفع تحت عينى المشرع جزئيات كثيرة تحتاج الى التشريع ، لا يقاس بها القطر البدوى الذى عاش فيه امامنا مالك ، فاذا انضم الى ذلك ما وصل اليهم من الحديث أى الى العراقيين من الحديث ، أنتج ذلك لا محالة ، اعمال الرأى ، وقديما قال الخليفة عمر بن عبد العزيز تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ، ونحن قياسا عليه نقول : تكثر للناس قضايا بقدر صلاتهم بالمدنية وتعقد حياتهم • ولذا اضطر المستفتون أن يطرحوا ما اعترض حياتهم من مشاكل على قادة الفكر ، فاذا وجدوا حلها فى أصلى التشريع - أى فى الكتاب والسنة - عملوا به ، والا قاسوا الامور بأشباهها وألحقوا الجزئيات بكلياتها ، واستنبطوا حكمها الملائم ، ثم يتعمقون فى الاكثار من فروع القضية المسؤول عنها فيقلبونها على سائر الوجوه الممكنة ويفرعونها بقولهم : أرأيت لو كان كذا حتى سماهم المتشبثون بالحديث «الأرأيتيون» يضاف الى ما ذكر من أن أصحاب الرأىلايهتمون بالحديث النبوى كثيرا بل يبالغون فى شروط صحته تجعل الكثير من كلام الرسول لا يعمل به ، والذى دفعهم الى المجاوزة فى الشروط تطرق الشك الى الرواة وكثرة من جرحه المحدثون وأفرط قوم من أصحاب الرأى فنبذوا الحديث بالمرة • واذا اتجهنا الى الفئة المتشبعة بالحديث الهائمة به ، نرى شعارها الاخذ بالحديث مع تساهل فى شروط الاعتماد عليه ، والكراهية المفرطة فى أعمال الرأى • والمشاكل التى لم يرد فى حلها نص ، اختلف الرواة لها وانتحلوا أحاديث نسبوها للرسول •

قال عتيق الزبيدى : وضع مالك الموطا عن نحو من عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه كل سنة ويسقط منه حتى بقى هذا ، ولو بقى قليلا لأسقطه كله ، انظر «الديباج المذهب فى تراجم المالكية لابن فرحون صفحة 52» • يبدو من هذا النص أن الرواة كانوا يتبارون فى الاكثار من الحجج التى يقوون بها نظرياتهم ، يدل على ذلك أن أبا حنيفة الذىعرف بتشدده فىالاخذ بالحديث فان اصحابه المقلدون له لم يتورعوا فى تعزيز فقههم بوضع أحاديث ليكونوا طبعا

عند حسن ظن العامة التى تنطلى عليهم أساليب العلم الصحيح • قال امامنا مالك : اذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته،وكان يسمى الكوفة دار الضرب يعنى انها تصنع الاحاديث كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير ، وقال ابن شهاب : يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى العراق ذراعا ، واذا بحثنا عن العلة التى دفعت أولئك للتسلح بالعقل نجد أن الذين أسلموا فى عهد الرسول والعمرين ، لم يكونوا فى حاجة الى فلسفة فى العقيدة والشرع بل يعتنقون الاسلام بمجرد كلمة التوحيد ، ولا يناقشون الداعى لبقية المبادىء فلما اتسعت رقعة الاسلام وضمت امبراطوريته الاماكن التى تؤوى المذاهب النصرانية ، التى كان بينها ـ كما قال الاستاذ أرنولد ـ من العداء واضطهاد بعضها لبعض أشد مما كان بين أهل دين ودين آخر •

وتاريخ الاسلام مدين بالفضل للمعتزلة ، لكونهم لقحوا الفكر الاسلامى ، واستعانوا بالرأى ، وقرعوا السن بالسن ، ليقنعوا أولئك الذين اتخذوا الاسلام دينا فى الظاهر • ولا عجب اذا رأينا مذهب الامام أبى حنيفة يستعمل نفس السلاح بواسطة المنطق اليونانى ، لحل القضايا المعروضة والمشاكل التى تقف حجرة عثرة ، سيما وكل أمة انتشر فى ربوعها الدين الحنيف تنظر اليه نظرة مغايرة للامة الاخرى،متأثرة بحياتها الاجتماعية بلغاتها،وعوائدها،وتربيتها، وعقائدها الموروثة عن آبائها الاولين • وزاد فى توسيع شقة الخلاف، بين الطبقات المتساكنة تعدد العناصر الدينية ، الصوفى المعروف بزهده ونسكه ، لا يمكن بحال أن يلتقى مع المتدين المتحرر ، وهذا فى نظرى عامل يحسب له الحسابات اذ بسببه ظهر هذا المذهب أو ذاك، ليقوم بحفظ التوازن فى الوسط المسلم ، ولا يقل هذا العامل أثرا عن عامل آخر ، جاء على يدى راوية كبير ، لا يخلو مسند أو صحيح من آثاره النبوية ، ذلك هو الصحابى الجليل أنس بن مالك المتوفى سنة 90 هـ • قال رضى الله عنه : ما أعرف شيئا مما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم • قيل له الصلاة ، قال : أليس صنعتم ما صنعتم فيها • فأنس رضى الله عنه ، الذى عاشر الرسول ، وشاهد عصر النبوة وعصر الامويين ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف الانظار والاعمال • قال عنه الاستاذ المرحوم أحمد أمين : فكيف اذا

شاهد العباسيين ومن بعدهم ؟ قد كان الاسلام سهلا يسيرا ، يقول الرسول عليه السلام : «**ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه**» ويقول عليه السلام : «**لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فان قوما شددوا على أنفسهم ، فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار ، رهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم** » • وكان قاسم بن محمد يلبس الخز الحريرى ، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ويقعدان فى مسجد المدينة ، فلا ينكر هذا على هذا ولا ذا على هذا • وحتى فى عهد الرسول صلوات الله عليه ، ظهرت فئة تغالت فى الدين واعتقدت ان المداومة على العبادة رغب فيها الاسلام ، **فأيقضها الرسول من غفلتها حيث قال لعبد الله بن عمر وهو الصحابى المعروف : يا عبد الله ان لك فى رسول الله أسوة حسنة ، رسول الله يصوم ويفطر ، وياكل اللحم ويؤدى الى أهله حقوقهم ، يا عبد الله ، ان لله عليك حقا وان لبدنك عليك حقا ، وان لأهلك عليك حقا**»•

ولا يتسرب الى الذهن ان الاعتماد على الرأى ، واتخاذه أصلا ، خاص بالامام ابى حنيفة ، لكل مذهب صعد الى منصة التشريع بحكم الظروف والعوارض المحتفة به ، اضطر لاستعمال الرأى ووضع له اصطلاحا اشتهر به ، كالمصالح المرسلة عند المالكية ؛ ودرء المفاسد قائم على جلب المصالح ؛ وارتكاب أخف الضررين ؛ ولا ضرر ولا ضرار ، كل ذلك خلف لنا ثروة فكرية ، يصعب علينا اتهام هذا او ذاك بالتزمت والجمود ، والذى يهم من هذا كله ان السبب فى الخلاف وتعدد المذاهب راجع أولا وبالذات لتفاوت المدارك ، ومثلا فى قوله تعالى : « **والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء** » فسره الحجازيون من الفقهاء بالاطهار والعراقيون فسروه بالحيضات،وكان اختلافهم تبعا لاختلاف الصحابة،فعمر وعثمان وعائشة وزيد ، قلدهم الحجازيون ، وقلد العراقيون عبد الله بن مسعود ، وقد يكون الاختلاف بسبب حمل الكلام على الحقيقة أو المجاز ، وقد يكون الاختلاف بسبب تفاوت المواهب كما سبق ، فريق استنتج من أحد الاصلين ، من الكتاب والسنة ، ولم يستنتج الفريق الآخر ، لكون مواهبه لم تساعده ، وقد يكون السبب فى الاختلاف توصل هذا الفريق بالاحاديث المتعلقة بالموضوع المراد حكم الله فيه وعدم توصل الفريق الآخر بالاحاديث • كالذى ورد عن ابن سعيد أنه قال:

قدمت مكة فألفيت بها أبا حنيفة فقلت : ما تقول فى رجل باع بيعا وشرط شرطا • قال أبو حنيفة : البيع باطل والشرط باطل • فأتيت ابن ابى ليلى فسألته عن ذلك فقال : البيع جائز والشرط باطل • فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك فقال : البيع جائز والشرط جائز• فقلت فى نفسى سبحان الله ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة ، فعدت الى أبى حنيفة فأخبرته بما قال صاحباه ، فقال : ما أدرى ما قالا لك ، حدثنى عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط • فعدت الى ابن ابى ليلى فأخبرته بما قال صاحباه فقال : ما أدرى ما قالا لك ، حدثنى هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة قالت : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أشترى ضريرة وأعتقها ، فاشترط أهلها الولاء لأنفسهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، البيع جائز والشرط باطل • قال : فعدت الى ابن شبرمة فأخبرته بما قال صاحباه فقال : ما أدرى ما قالا لك ، عن جابر قال : بعت النبى بعيرا ، وشرط لى حملانه ،أى نقله الى المدينة • البيع جائز والشرط جائز •

أولئك الذين يفضلون القياس، يضيقون دائرة الحديث، والعكس بالعكس • وكما كان الخلاف بين فقهاء القرن الثانى ، فمن بعده كذلك كان بين الصحابة أنفسهم • **قضية قتال مانعى الزكاة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه أشهر من أن تذكر ، فأبوبكر قال برأى وعمر قال برأى ، وفى تفسير الالوسى قال : قال أبوبكر الصديق رضى الله عنه : أيها الناس ، انكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضيعها « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » وانى سمعت رسو لالله يقول : «ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده» •**

ليس معنى هذا ان الحديث ناسخ للقرآن ، وانما هو تفسير له :
« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم »
يعنى بعد أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر عليكم أنفسكم • فهذا مبدأ من مبادىء الدين يجب اعتباره • وقدامة بن مضعون رضى الله عنه فهم من قوله تعالى : « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة** » انغماس الرجل فى العدو حتى بين له أبو أيوب الانصارى ، ان هذا ليس من

الالقاء بيده الى التهلكة بل هو من بيع ،رجل نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وان الالقاء بيده الى التهلكة هو ترك الجهاد ، والاقبال على الدنيا وعمارتها ، والصحابة أنفسهم كانوا يخالفون الرسول فيما لا وحى فيه اذا تيقنوا بأن ما قاله الرسول عن رأى ، كما فعلوا يوم بدر اذ جاء النبى أدنى ماء من بدر فحل به فتساءل الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول بل هو الرأى ، فقال : يا رسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء فننزله ، ثم نردم ما وراءه ، قال عليه السلام : « **ما كان من أمر دينكم فالي،وما كان من أمر دنياكم فانتم أعلم به** »

وقد عقد صاحب الفكر الاسلامى الاستاذ المرحوم محمد الحجاوى الجزء الاول ، صفحة ١١٧ ، فصلا خصه لوقوع الاجتهاد فى العصر النبوى وقال بالنص : ان وقوع الاجتهاد من الصحابة فى عصره عليه السلام واستنباط الاحكام الفقهية من أصوله لا تمترى فيه من له معرفة بالسنة ٠ ولنأتى بأمثلة تصلح شاهدة لما نقول فى المرأة ، يعنى فى المرأة التى وقع عليها ثلاثة رجال فى طهر واحد بالقرعة ، ومن ذلك اجتهاد بعض الصحابة لما قال عليه السلام «**لا يصلين أحد العصر الا فى بنى قريضة**» فصلى البعض فى الطريق محافظة على الوقت ، وبعضهم وقف مع الامر ولم يصل حتى وصل ، والحديث فى الصحيح فعذر النبىعليه السلام الجميع ولم يعنف واحدا منهم٠وعن الاجتهادين المذكورين تفرع مذهبا القياسيين وأهل الظاهر ٠ **ولما أسند النبى صلى الله عليهوسلم الولاية الى معاذ بن جبل على اليمن قال له : بم تحكم يا معاذ ؟ فقال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ؟ فقال : بسنة رسول الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد ولا آلو ولا أقصر ٠ فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ٠** وقال عليه السلام : «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين من بعدى**» ، وقال ـ كما فى صحيح مسلم ـ «**ان يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا**» فلو لم يكونوا مجتهدين واجتهادهم صائب لما أمر الرسول بالاقتداء بهم ، والادلة على ذلك كثيرة ٠ وكما اجتهد أصحابه عليه السلام ، اجتهد النبى بنفسه كما فى جمع الجوامع ٠ ومما هو صريح فى اجتهاده قوله تعالى : « **يا أيها النبىء لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى**

مرضات أزواجك » ومنه قولـه تعالى : « عفـا اللـه عنك لما أذنت لهم » عوتب على الاذن لمن ظهر نفاقهم فى التخلف عن غزوة تبـوك ، ولا معنى لأن يعاتب النبى عما نزل به الوحى وانما هو اجتهاد ، فلو نزل به الوحى لما خالفه الرسول · ويدخل فى نطاق تحكيم الـرأى ما بناه الامام ابن تيمية على القاعدة الاصولية الشهيرة رضى الله عنه رأى هو وأصحابه فى عهد التتار ، جماعة تتناول الخمر فأنكر عليهم من كان مع ابن تيمية ، فقال ابن تيمية للملاحظين : انما حرم اللـه الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمـر عن قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الاموال ، فاتركوهم ·

وما دمنا بصدد بيان أسباب تعدد المذاهب فلنشر الى ناحية أخرى تستوجب الاهتمام ، وهى انه حينما يقع خلاف فى مسألة من المسائل يكون المختار فى كل بلد عند أتباع المذهب الذى ساد فيه ، بمعنى أن أتباع مالك مثلا ، فى الجزائر ، يعملون بكذا ، وأتباع مالك ،مثلا، فى العراق يعملون بكذا ، يعنى مخالفين لاتباع مالـك فى الجزائر ، لكون البيئة لها دور ولها آثار فى تكييف الفهم ، وفى تكييف الاخـذ من المذهب · وعلى هذا الدور انتشرت المذاهب ، مالك بالمدينة ، والاوزاعى بالشام ، والليث بمصر ، وسفيان بن ابى ليلى بالكوفة ، والملاحظ أن الحكومة المركزية اذ ذاك لم تتدخل فى فرض سياسة تشريعية موحدة ، بل تركت الحرية لكل بلد يختار الموافـق له ، وبسبب ما ذكر كثرت الآراء والمذاهب خصها مثل الطبرى والبيهقى بالتأليف · ولولا تشجيع الدول الاسلامية فيما بعد لهذا المذهب او ذاك ، والتحمس لنشره ، لعمرت مذاهب أخرى وكتب لها الخلـود ، مثل ما كتب للمذاهب الاربعة المشهورة · وبالمناسبة أذكر هنا ما روى أبو الحسن النباهى الاندلسى صاحب كتـاب «تاريـخ قضـاة الاندلس» صفحة 74 · قال فى ترجمة منذر بن سعيد البنوطى المتوفى سنة 355 هـ ، قال عنه : كان مفتيا فى ضروب العلم ، وغلب عليـه التفقـه بمذهب أبى سليمـان داوود الظـاهرى فكان يفضل مذهبه ويجمـع كتبه ويحتـج بمقالته ، ويأخـذ بها لنفسـه ، فاذا جـاء مجلس الحكومة قضى بمذهب مـالك بن أنس وأصحابه الذى عليـه العمل فى بلده ولم يعـدل عنه ، غريبة هذه ، منذر بن سعد يتمذهب بمذهب داوود الظاهرى ولكن حين يحـكم يحكم بمـذهب مـالك ،

وبالمناسبة أيضا أشير الى ما قاله الشافعى فى حق الليث المتوفى بمصر سنة 175 هـ ، قال: الليث بن سعد أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به ـ يعنى لم ينشروا مذهبه مثلما نشر أصحاب مالك مذهب مالك ـ .

والدكتور محمد يوسف موسى ، أستاذ ورئيس قسم الشريعة الاسلامية بجامعة عين الشمس وصاحب «تاريخ الفقه الاسلامى والدعوة الى تجديده» ومؤلف الفقه الاسلامى ، تعرض لقيمة المذاهب المندثرة، وقال فى شأنها ، صفحة 293 : **اذا اردنا أن نسند نهضتنا فى الفقه والتشريع بدعائم من آراء الاسلاف الماضين وجب أن نعمل على احياء هذه المذاهب ونحوها ، فهى حرية وجديرة بأن تقدم لنا آراء خصبة لبعض مشاكل العصر .**

وما دام الحديث يتعلق بالاسباب التى حدت بالائمة الى وضع مذاهب باجتهادهم تعين أن نختم بالاشارة الى تسليط بعض الاضواء على تلك الاسطورة الخرافية التى تقول بأن الفقه الاسلامى ، متأثر بغيره يعتمد على القاعدة الشهيرة ، شرع من قبلنا ، شرع لنا ، فيكون فقهنا مقتبسا من الشرائع التى قبلنا ، والجواب عن هذا كما قال الاستاذ الحجاوى رحمه الله صفحة 14 الجزء الاول من فكره الاسلامى: «**فقهنا مرتقى ليس مقتبسا ، فهو كالعلم المرتجل**» نبينا عليه السلام أمى وأمته التى بعث فيها بدوية لم تكن لها فى زمن تكوين الفقه حضارة تتمكن بها من الاقتباس من كتب قبلها ، ففقهنا مقتبس من قرآننا ، وسنة نبينا ، ناشىء بنشأتهم ، أما من قال من علمائنا ان شرع من قبلنا شرع لنا،فليس مراده أننا نطالع توراتهم مثلا،ونقتبس منها الاحكام ، فهذا لا قائل به ، وانما مرادهم ان ما ورد فى القرآن أو السنة حكاية عن وقائع الامم السالفة ونوازلها الفقهية اذا لم يقم دليل على نسخه يكون شرعا لنا لكون الشرع قرره ، ولم ينكره ، فحكايته له وعدم انكاره بمنزلة قوله اعملوا به ، كقوله تعالى : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس..الآية** » أما كتب الكتابيين فلا يجوز لنا أن نأخذ من الاحكام أصلا لقوله عليه السلام:«**لاتصدقوهم ولا تكذبوهم،وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وانزل اليكم**» ، ويجب أن نلاحظ أيضا التهمة القائلة بأن الفقه الاسلامى متأثر بالرومان فان

الشريعة الاسلامية وحدة كاملة،أى جاءت فى زمن واحد مصدرها هو النبى عليه السلام ، ولم يلتحق بربه حتى تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، وما زاد الفقهاء شيئا سوى التصنيف ، فاذا لم يجدوا نصا صريحا استنبطوا قانونا مناسبا للقواعد الاساسية ، فاذا استعرضت قوانينهم الفقهية تجدها كلها واضحة لا التباس فيها ولا غموض ٠ أما الفقه الرومانى فتاريخه يشهد بأنه اختفى ثم اكتشف ، ولم يعمل به الا فى القرن الثانى عشر او الثالث عشر ، بعد الميلاد ، أما قبل الحادى عشر فانه لم يكن معروفا حتى عند الرومان أنفسهم، والفقه الاسلامى كان قائم الذات ، بالغا درجة الرشد فى أواخر القرن السادس ٠

قال صالح العلوى لدى مناقشته للموضوع ، فى مجلة «الرسالة» للمرحوم الزيات ، السنة الثالثة الصفحة 781 : أليست هذه مهزلة مضحكة ، اذا كان أئمتنا درسوا ، وألفوا ، وصنفوا ، قبل أن تظهر للعيان القوانين الرومانية ، أو قبل أن يعرفها الرومان أنفسهم ثم نقل عن أحد الباحثين ما نشرته مجلة «**النظم الحضارية**» قال فيه ان دعوى اختفاء الفقه الرومانى وظهوره بعد ستة قرون أكذوبة لاشك فيها ، وقد كان الفقه الرومانى معروفا وهو أشبه شيء بالفصول المضحكة ٠ أنظر ـ تاريخ الدولة الرومانية ـ٠وذكر المرحوم العلوى الذى نقل عنه صاحب البحث أمثلتين من معاملة الرومانيين ، ثم قال: بمثل هذه المحاكمات القاسية كانت تجرى الاحكام لغاية القرن الحادى عشر ، ولم تتبدل الا فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر ، وقد قال ابن تيمية رحمه الله فى القول الصحيح : ان النصارى فى طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضى بينهم بشرع المسلمين اذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به الناس ، ليس فى الانجيل حكم عام بل عامته الامر بالزهد ، وثبت تاريخيا يوم كان العرب والمسلمون فى أوج الرقى ان البعثات الاوروبية كانت تفد على الاندلس لأخذ المعرفة ونشرها فى ربوع أوروبا الجاهلية اذ ذاك ، لأن شرعهم كان يقضى بمرور المخطوبة على السنيور وكلما مكثت فى منزله ازداد شرف الخطيب ٠

دخل الاسلام أوروبا وحكم أهلها ، وأسس فيها قواعده العادلة ، وبعد لم يبق بعد هذا الا أن أضم صوتى لأولئك الذين يطالبون بأن

يستمر باب الاجتهاد مفتوحا ، لمن توفرت فيهم شروطه وأن نخـول القاضى الكفء الحرية ليختار النص المحقق للعدالة ، وان نعمل لاحياء ما درس من المذاهب عسى أن تلهمنا ما نحل به مشاكلنا المعلقة مثل معاملاتنا البنكية وما شابهها ، كما نوجهها صرخة مدوية الى أولئـك الذين نبذوا فقههم جانبا ، ونقلـوا من أوروبا قوانينها الدخيلـة ، وصاروا يحكموننا بها،الى هؤلاء الماسخين المتنطعين لقوميتنا وعقيدتنا أناشدهم الله أن يعودوا الى تشريعهم الاسـلامى ويـدرسونه ، والى ضمائرهم ويحكمونها ، فما على السادة والشعب الا أن يكون ضمـن مهامهم مقاومة الزيغ كيفما كان شكله ونوعـه ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

حول مقال : خطبة الجمعة ، وابتعادها عن واقع المسلمين المعاش (1)

عن هيئة التحرير الدينية
سليمان المدني

طالعتنا جريدة الشعب فى العدد (4219) ، الصادر يوم 01 ـ 06 ـ 1977 م ، بمقال فى ركن (بريد الشعب ، بعنوان : (خطبة الجمعة ··· وابتعادها عن واقع المسلمين المعاش) ·

فانتقد صاحب المقال ، الخطبة فى جميع الاحوال ، وعمم فى الانتقاد كالعوام والجهال ، وجردها من محتواها الى أن تجاوز المحال ، وصال وجال ، فى نقده وهدمه ، فدل بذلك على ركاكته ، وثقله ، وتبلده ، وعدم انتباهه وفهمه ، لما تشتمل عليه الخطبة من توجيه ، وتربية وتنبيه ، وحث على العمل الشريف النزيه ، وانما صاحبنا سيطر عليه الوسواس ، وجره الى هاوية الافلاس ، فأراد أن يجعل الامام كقسيس كنيسة تكساس ، بالولايات المتحدة الذى جلب راقصة تثير الاحساس ، لاجتذاب الناس ، فجاؤوا من كل حدب وصوب لا للصلاة ولكن لمشاهدة الفتاة ، لعل صاحب المقال يحبذ هذه الطريقة وتلك الفعال ، ليبعد جو النعاس ، عن أجفان بعض الناس ·

ولم يدر صاحبنا بعالم الناس ، وما تملك الوزارة من نظام ومقياس ، من الجزائر الى عين أم الناس ، ومن تلمسان الى سوق أهراس ، فتعطى لكل مناسبة قدرها من التشجيع والحماس ، والخطب كلها تسير على هذا الاساس ، من وعظ وارشاد ، لصالح المجتمع والبلاد ، والحث على تربية الاولاد ، ونهى عن المنكر والفساد ،

(1) المعاش خطأ شائع والصواب : «المعيش» ، مثل مبيع ، ومزيد ، من الثلاثى عاش ، باع، زاد · وما أكثرن الاخطاء الشائعة التى تكاد تصبح الآن هى الكتاب !

وملاحقة ذوى الطيش والالحاد ، وهواة المنكر والفساد ، وتأديب من اتصفوا بالمشاغبة والعناد ، وتوجيه قارص الانتقاد ، لبعض المعوجين من العباد ٠

وأظنك أيها الاخ ـ سامحك الله ـ تمر على المسجد من بعيد ، لئلا يصيبك من دخوله خوف من الله شديد ، أو لعلك ممن يترفع عما يقوله الامام ، فلا يسمع الدرس الذى يلقى قبل الخطبتين ويتناول كل يوم جمعة المشاكل الاخلاقية والاجتماعية الخاصة بالجهة ، ولهذا وصفت الخطبة بأنها خالية من أي موضوع ذى شأن جديد ، وجئتنا بخبر غريب فريد ، ولو تشجعت واقتربت لوجدت فيه ما يفيد ، ويزول غرورك وتتهذب وتزيد ، وتكون كالمؤمن السعيد ، فيلين طبعك الشريد ٠

واننا لنعجب ممن يدعى التقدم فى الهيئة ، ويقلد كل ناعق فى الصيحة ، ويحسب من قراء العربية ، وقد تراه لا يملك ذرة من الانتباه ، وهذا اسمه فقد تناساه ، فأخر الاسم وقدم اللقب ، فخالف بذاك سنة الاعراب والعرب ، وقد سمعتموه حينما ثار ، ثم انهار كأكواخ القصب ، تعلو بها زوابع الرياح ثم الى الارض تنقلب ، من أعلى الى أسفل فى ارتعاش تضطرب ، تعفر الجو وتدنس الاشياء بغبار السحب ٠

أتسخر بالائمة وبالخطب ، وبما ادخره السلف الصالح فى الكتب ، من سجع سلس عذب ، ينير الطريق ويثير العجب ، فارتضاه الناس وتأكد به الطلب ، والفصحى به تهذب النفوس وتزيل الغضب ، ولم يعبه الا من طبعه الغضب ، ويعاب بعدم الذوق وقلة الحياء وسوء الادب ٠

(وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم)

عار عليك أن تنغمس فى حمأة الشتم والشغب ، وتتحامل فى حقد وحسد دون ما سبب ، أأنت صحيح فنتحدث معك أم أنك مصاب بالعطب ؟ أم ظننت أن التهوش نوع من الفكاهة والطرب ، أم أقلقك صوت المؤذن أم صوت القرآن حين يتلى فى الخطب ، أم أزعجك توجيه الامام بحث الناس على التحلى بالحياء فى وقار وأدب ؟

وهل هذا يفزع ويروع ويثير الدهشة والعجب ، ويدفع بمحمد خليفاتى الى المشاغبة،والمشاجرة،والغضب ، والتحامل على الائمة وعلى الخطب ، فى رعونة وسوء أدب ٠

اننا لنندهش ، حينما نقرأ لمن يدفعه الحقد فينحرش ، فيكذب ويموه ويغش ، ويبالغ فى الكبرياء وينتفش ، وقد سمعنا صيحة خبث من باب الوادى ، بالغش

والتهور تنادى ، وانضمت الى كفة الفساد ، وليعلم الجميع أن الوزارة ليست فى حاجة الى موجه ، استغفر الله بل الى مشوه ، أبله مستبله ، يرشدها أو يساندها ، والى الاعو جاج يقودها ، وعن سبيل الحق ونصرة الدين يصدها ٠

انها ليست فى حاجة الى نقد منتقد ، أحمق ومعاند ، جهول متبلد ، ولم تكن فى يوم من الايام تسمع الى نهيق أحمرة ، أو نقيق ضفادع بركة ، تتجاوب فى خبث ومكر كالصراصرة ، وهل يصم الآذان طنين الذبابة ، أو يلفت الانظار دبيب النملة ؟

وما الفرق بين ما يكتبه الائمة ، وما تشرف عليه الوزارة ، أو يحــور اذا جاءت المناسبة ، فليخرص المضللون اننا لهم بالمرصاد ، ممن لا يفرقون بين الضاد والصاد ، فى المدن والبوادى ، من بنى سليمان الى باب الوادى !